

من أسرار القرآن

مصطفى محمود



سئلت ذات مرة . . لماذا خلق الله الحشرة ؟ ؟ ! !
ولقد فكرت حين ذلك وقلت في نفسي ربما لو أخذنا رأى الحشرة
لقال . . ولماذا خلق الله الإنسان . . ؟
ولو تأملنا الكون لوجدنا أن الله خلق لكل شيء آفة تعتدى عليه .
خلق القطن وخلق دودة القطن
وخلق النبات وخلق الجراد
وخلق الأسنان وخلق سوس الأسنان
وخلق العين وخلق الرمذ
وخلق الأنف وخلق الزكام
وخلق الثمرة وخلق العفن
وخلق الحديد وخلق الصدأ
وخلق الإنسان وخلق معه جيشاً من الأعداء لاغتياله من يق وبراعيش
وبعوض وذباب وديدان وميكروبات وسل وجذام وتيفوس وكوليرا .
والله لم يحاول إخفاء هذه الحقيقة وإنما أعلنها في كتابه على أنها
أمر مراد مقصود . فقال جل شأنه .
« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ »

أنى فى مكابدة وعناء . فالله لم يرد بالدنيا أن تكون دار سلام وإنما أرادها أن تكون دار عناء وكفاح وشد وجذب بين أصداد . . . أراد أن يستحق كل شىء فيسلط عليه ضده . وأن يبتلى كل شىء بنقيضه .
ويعود فقيراً فى القرآن إشارة إلى هذا الناموس الذى جعل من الدنيا محلاً لتدافع المناقضات .

يقول ربنا تبارك وتعالى فى كتابه :

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » .

٢٥١ - البقرة

وتتكرر الإشارة فى مكان آخر بنفس الألفاظ :

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » .
٤٠ - الحج

وتكرار الإشارة يدل على الأهمية ولفت النظر .

والله يشرح لنا فى الآيات أسرار حكمته فى هذا الناموس العجيب ، فهو يدفع بالأقوياء بعضهم على بعض ويكسر الجبارة بجبارة من جنسهم ليستطيع الضعفاء أن يعيشوا ويمارسوا العبادة فى صوامعهم ومساجدهم . . . فهذا القانون مظلة أمان تحميها من جبروت الجبارين لأن الله يستنفذ طاقتهم فى ضرب بعضهم بعضاً .

ومعلوم الآن فيما نرى من التاريخ أن هذا الأمر صحيح تماماً فى الأفراد كما أنه صحيح تماماً فى الأمم فهذه أمريكا تتصخم وتتملق فى القوة وتملك القنبلة الذرية ثم الهيدر وجينية فيدفعها الله بروسيا ويسهل لهاى الأخرى امتلاك القنبلة الذرية ثم الهيدر وجينية . . . ومن انشغال القوتين الكبيرين بصراعهما بعضهما بعضاً نستطيع نحن دول العالم الثالث أن نتنافس ونعيش . . . بل نستطيع أن

نغازل الاثنتين ونستفيد . . . ولو أن روسيا كانت انفردت بالعالم لأهلكته . . . ولو أن أمريكا كانت انفردت بالعالم لأهلكته ولكن رحمة الله دفعت بالقوتين العظيمين بعضهما ببعض . بل الأمر العجيب أنه حينما بدأت القوتان الكبيرتان روسيا وأمريكا تتقاربان وتتعايشان أظهر الله الصين هائلة عملاقة على المسرح وسلمها مفاتيح الذرة ثم دفع بها نقيضاً يستنزف الروس والأمريكان معاً .
قانون ثابت يعمل فى الفرد واجتمع والطبيعة والتاريخ هو دفع المناقضات بعضها ببعض . . .

والله يقول لنا إن هذا القانون مرتبط بصلاح الأمور فى الأرض ولولاه

لفسدت الأرض .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » .

٢٥١ - البقرة

وهذا القانون يعمل منذ بدء الخليقة ، منذ أن أهبط الله آدم إلى

الأرض .

« وَقَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ

٣٦ - البقرة

إلى حين » .

تقررت السنة الإلهية من البداية « بعضكم لبعض عدو » ثم هى سنة عامة ، فالله يضرب الاضداد بعضها ببعض فى كل شىء ، فى المادة وفى الفكر .

« كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً

١٧ - الرعد

وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فِيمَا كُنْتُمْ فى الْأَرْضِ » .

وبذلك يمحص الأفكار كما يمحص الأفراد فيبقى على الصالح

ويقضى على الفاسد .

١. سلم الأسياء من هذا القانون .

« ذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنيس والجن يوحى بعضهم إلى
موس إذ حرف القوم غرورا » .

١١٢ - الأنعام

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً »

٣١ - الفرقان

ذكر القرآن هذا القانون وحدده لأكثر من ألف وثلاثمائة سنة

قبل أن يتكلم عنه هيجل موسعاً تحت عنوان Dialectical Idialism

او المنطق الجدلي المثالي . . وكان في ظن هيجل أن هذا القانون يعمل

فقط في عالم الفكر . . ثم جاء ماركس ليقع في ضلال آخر فيتصور

أن القانون يعمل في المادة وأنه جدل مادي وأعطاه اسم Dialectical

Materialism أو المنطق المادي الجدلي ثم وقع ماركس في خطأ

ثان متصوراً أن القانون يعمل بذاته وأنه هو الذي خلق من المادة كل صور

الحياة من نبات وحيوان وإنسان . ثم وقع في ضلال ثالث فأخذ يلفق

من هذه الآراء مذهباً يسخره للأهواء السياسية والأغراض بتحريض الفقراء

على الأغنياء والعمال على أصحاب الأعمال فيما يسمى بفلسفة الصراع

الطبقى .

وكل هذه الأخطاء لا نجدها في القرآن الذي أشار إلى القانون منذ

ألف وأربعمائة سنة . . فالقرآن يعلمنا أولاً أن هذا القانون شامل لا هو

مادي كما يقول ماركس ولا مثالي كما يقول هيجل . . ثانياً . . أن هذا

القانون مخلوق وليس خالقاً . . فهو مجرد أداة في يد الله يصلح بها حياة

خلقه ويحرك بها الأحداث نحو توازن محمود بين مختلف القوى لكيلا

يطغى طرف على طرف .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » .

٢٥١ - البقرة

إذن الله هو الذي يدفع والله هو الذي يجري القانون .

الله أولاً والله أخيراً .

الله هو الحقيقة الأولى . . والقانون الجدلي مجرد سبب . . مجرد

أداة مخلوقة مسخرة تعمل بمشيئته وتصريفه . هذا هو جلاء الأمر

في موضوع المنطق الجدلي الذي تدور حوله معارك الفلسفة والسياسة

اليوم . . أنزله الله على قلب محمد عليه الصلاة والسلام منذ ألف وأربعمائة

سنة .

وما أكثر ماسمعنا الصوفيين ينشدون في أشعارهم :

أن العناصر مجمع الأضداد

ينحى الظلام بها دوام جهاد

ونقرأ لمولانا الإمام الصوفي أبو العزائم يصف الروح والجسد . .

بأنهما « كالتلج والنار قد جمعا برحمته » . . الشيء وضده . . الشيء

ونقيضه . . ابتلى الله الروح بالجسد كما جمع بين الإلكترون السالب

والبروتون الموجب في ذرة العنصر (إن العناصر مجمع الأضداد) .

ويقول أبو العزائم عن نفسه :

مجمع الأضداد ختمى أولي

أى من الله جئت وإلى الله أعود (ختمى أولي)

ثم يعود إلى نفس المعنى في بيت آخر

لوح آيات التجلي هيكلى جامع الضدين ختمى أولي

فهذه النظرة الجدلية الديالكتيكية كانت عندنا قديمة .

والشاعر عندنا يقول :

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد
ثم يشرح لنا القرآن وجهاً آخر من وجوه الحكمة في هذا الناموس
الجدلي هو تحقيق التوازن وبلوغ صراط الاعتدال الذي يسميه بالصراف
المستقيم

والصراف المستقيم في القرآن هو الوسط العدل ، متزن بين تقيضين ،
هما : الإفراط والتفريط

بين البخل والإسراف الصراف المستقيم هو الكرم

وبين الجبن والتهور هو الشجاعة

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا »

٦٧ - الفرقان

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْسُورًا » .

٢٩ - الإسراء

ويصف أمة الإسلام بأنها أمة الوسط (أهل الاعتدال)

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » .

١٤٣ - البقرة

والمسلمون شهداء على الناس لأن عندهم المعيار الصدق الذي يحكمون
به على جميع أهل التطرف من كل الملل والمذاهب (مثل المتر الذي
يقيس الطويل والقصير) .

والوسط العدل في الإسلام ليس مجرد وسط حسابي وإنما هو وسط
تركبي انتقائي جدلي . . فالكرم ليس وسطاً حسابياً بين البخل والإسراف
وإنما هو وسط انتقائي يضم أحسن ما في البخل (وهو الحرص) إلى

أحسن ما في الإسراف (وهو المبادرة والبسط) ثم هو يضيف إلى هذه
الصفات مزيداً من صفات أخرى مثل العقل والسداد وحسن الاختيار
ليؤلف الكرم . .

وبالمثل نرى أن الشجاعة ليست وسطاً حسابياً بين الجبن والتهور .
وإنما هي وسط انتقائي تركيبى جدلي ، فهي تأخذ من الجبن صفة
الحذر ومن التهور صفة الإقدام ثم هي تضيف مزيداً من صفات الثبات
وسلامة الهدف والإصرار لتؤلف الشجاعة .

وبالمثل نقول إن الصراف الإسلامي ليس وسطاً حسابياً بين الجبن
الرأسمالي واليسار الشيوعي ، وإنما نرى في الإسلام تركيباً انتقائياً جدلياً
يأخذ من الجبن أحسن ما فيه ومن اليسار أحسن ما فيه ثم هو يتجنب مساوئ
النظامين ، ثم هو يعطى إضافة من النعمة الروحية والإشباع الروحي
يمنح المسلم سنداً من الغيب وخلوداً في الجنة . . فهنا شيء جديد متفوق
وليس مجرد وسط حسابي بين اشتراكية ورأسمالية ، وإنما نظام يشمل الاثنين
ويفوق الاثنين ويسبق الاثنين (فالإسلام سابق على الاثنين بألف سنة) .

وكما نجد في القرآن أسس المنطق الجدلي الذي يقوم على التوتر
والتناقض وصراع الأضداد . . المنطق القائل بأن في كل شيء جرثومة
فنائها (كل شيء هالك إلا وجهه) . . كذلك نجد في القرآن أسس
المنطق الصوري ، وهو المنطق الأرسطي القائل بدوام الأشياء وثباتها
واستمرارها . . ولكن القرآن يقصر هذا المنطق على الإلهيات . . فلا ثبات
ولا دوام إلا لكل ما هو إلهي . . مثل السنن والقوانين الإلهية .
« فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا » .

٤٣ - فاطر

وكذلك الذات الإلهية أو الوجه الإلهي .
« كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » .
« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .
٢٦ - ٢٧ - الرحمن

ولعل هنا من يشطح به ذهنه فيتصور على الله شبهة ظلم إذ خلق الإنسان في كبد وسلط عليه المرض والميكروب والحشرة وسلط بعضه على بعض . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وتصحيح الأمر أن الله خلق الداء ولكنه أيضاً خلق الدواء (في شراب الينابيع وفي الأعشاب وفي عناصر الأرض تحت أقدامنا) وخلق العقل لنستدل ونستكشف ونعرف كيف نتداوى ونبرأ من أمراضنا .

وحينما شكأ أيوب لربه ما أصابه قائلاً :
« أَنْتَى مَسْنَى الشَّيْطَانِ يَنْصُبُ وَعَذَابٍ » .
٤١ - ص

قال له ربه :
« أَرَكُنْصُ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدًا وَتَرَابٌ » .
٤٢ - ص

فالله خلق السم والترياق . . ثم أنه سبحانه جعل في هذا التحدى العدواني المستمر مصلحة ومنفعة . . إذ أن سم الميكروب يحفز النسيج الحى إلى الاحتشاد كما تدفع لسعة البرد الدم إلى الشرايين . . وبذلك جعل الله من عدوان الطبيعة حافزاً مستمراً لمخلوقاته لتحشد ولتبتكر ولتبدع أحسن ما تحتزن من طاقات فتكون بذلك دائماً على أكمل صورة . . ومن الصراع بين الجسم والميكروب تنشأ الحصانة والمقاومة .

ولو أن الحياة الدنيوية سلمت من الأعداء وأخلدت إلى الراحة والأمن والدعة لترهلت وتختفت وضعفت وانقرضت . . وهو المصير

المألوف الذى نشاهده في الأفراد كما نشاهده في الأمم حينما تخلد إلى الترف والملاذات . . ولهذا يغرس الله الأشواك في الأمم لتخرج منها الورد . . وهذا هو ما حدث عندنا . . حينما تحاذلت الأمة العربية وانقسمت واختلفت وأتتهكها الترف غرس في وسطها شوكة اسمها إسرائيل لتحفزها إلى الوحدة حفزاً وتضطرها إلى اصطناع القوة والحديد والعضلات والتكنولوجيا لتواجه تحدى الموت . . وحينما شدت أمريكا أزر إسرائيل بالسلاح فجر الله عندنا البترول والمال العربى وينايع الطاقة وفتح أماننا ترسانات عدة للسلاح عن يمين وشمال . .

سنن كونية تعمل وقوانين أزلية تجرى في خفاء واستسرار وتعمل دائبة على حفظ التوازن العجيب المعجز للمخلوقات ، حتى يتقوى الضعيف ويضعف القوى ، وحتى لا تطغى قوة على قوة ، ولا تبتلع حضارة حضارة ، ولا يفنى نوع من الأحياء نوعاً آخر .

تجد أمثلة لذلك في عالم الحشرات وفي عالم النبات وفي عالم الإنسان وفي الطبيعة . . كلما تكاثرت حشرة وتجاوزت معدلها أوجد لها الله عدواً طبيعياً يلهتها ليعود التوازن إلى البيئة ولتجد جميع المخلوقات فرصاً متكافئة للحياة . . وهذا ما نراه في جنوب السودان حيث يتوالد البعوض بكثرة هائلة في الأماكن الموبوءة بالملاريا فتظهر له حشرة مضادة هى الجاحب المضيئة التى تغطى الأشجار بالملايين وتضىء لتجذب البعوض وتأكله .

وحينما تدخل الإنسان بالمبيدات الحشرية فإنه أخل بهذا التوازن الدقيق وأدى بتدخله إلى كارثة تلوث البيئة . . وذلك لأن المبيدات قتلت الحشرات ، وقتلت الطيور التى تأكل الحشرات ، ولوثت الحشائش

والمزروعات ، وأمضت البهائم التي ترعى هذه الحشائش ، ثم أمرضت الإنسان الذي يأكل لحوم تلك البهائم ، كما لوئت مجارى الماء وقتلت الأسماك ، فافسدت البيئة كلها وأتلفت علاقاتها بضرية واحدة .
ثم أنها قتلت الحشرة الضارة والحشرة المفيدة معاً .

وهذا هو الفرق بين الحكمة الإلهية والحماقة البشرية وبين علم الله الشامل وعلم الإنسان المحدود .

كيف يتصرف الله بحكمته في فضلات الحيوان والنبات ؟ ! . نحن نرى مثلاً نادراً من العلاقة المتبادلة المنسجمة المتناغمة . . الفضلات التي يخرجها الحيوان يستخدمها النبات كسماد وغذاء نافع مفيد . . وفضلات التنفس التي يخرجها الحيوان وهي ثاني أكسيد الكربون يستخدمها النبات في بناء نشوياته بالتمثيل الكلوروفلى . . ثم ما هي الفضلات التي يلقها النبات في الجو بعد هذه العملية الحيوية . . إنها الأوكسجين الذي يلتقطه الحيوان والإنسان في نهم وعطش ليتنفس به ويعيش . . علاقة متبادلة غاية في الدقة والانضباط ، ما يستغنى عنه طرف يحتاج إليه الطرف الآخر . . كل منهما يكمل الآخر في رحلة الحياة . . وهكذا يستفاد من جميع المخلفات . .

وفي المقابل ماذا يفعل الإنسان بعلمه وعقله . . وكيف يتصرف في فضلاته . . إنه يلقى بالآلاف الأطنان من مخلفات المصانع الكيماوية من مواد كبريتية ضارة ومهلكة في مجارى الماء فيلوثها . . والسفن تلقى بالزيت والشحوم على الشواطئ فتتلفها . . وفضلات المصانع الذرية تذهب إلى البحر وتنشر معها الموت أينما حلت . . والغبار الذرى المتخلف من التجارب تحمله الرياح في الجهات الأربع . . ولا يعلم إلا الله ماذا

سيفعل بنا وبالأجيال المقبلة من عاهات وأمراض وتشوهات .

الله ينشر النظام والانسجام بقوانينه وسننه .

والإنسان ينشر الاضطراب والفوضى والتلوث بعقله وعمله .

وما أجمل القرآن حيناً يلخص هذه الحكمة الإلهية في كلمات .

« خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا » . ٢ - الفرقان

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » . ٤٩ - القمر

« قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » ٣ - الطلاق

« وَأَبْتَنَّا فِيهَا (أى فى الأرض) مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ » .

١٩ - الحجر

٨ - الرعد

« وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعِقْدَارٍ » .

والأرض كمثال قدرها الله بمقدار في الكتلة والحجم والبعد المكاني

عن الشمس . . لو كانت أبعد لامت الأحياء عليها من البرد ولو كانت أقرب

لاحترقت من حر الشمس . . ولو كانت الأرض أصغر حجماً وكتلة لفقدت

جوها وماءها (بسبب ضعف الجاذبية كما هو حال القمر) ولأصبحت

الحياة مستحيلة . . ولو كانت أكبر حجماً وكتلة لتضاعفت الجاذبية

ولتضاعف وزن الكائنات عليها ولما استطاعت الحركة . .

وقل ذلك في موقع كل نجم فجميع الأجرام الساوية مرتبطة ببعضها

البعض ارتباط الحبات في مسيحة .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » .

٧٥ - الواقعة

والله جعل لكل حركة إيقاعاً في الزمان والمكان . . يؤخر ويقدم ويبدئ

ويعيد بمقتضى الحكمة العالية التي لا يحيط بها عقل . . ومن أسمائه أنه

المقدم والمؤخر والمبدئ والمعيد والعلم والحكيم والمحيط والكبير والمتعال . .
 المتعال على جميع الأفهام وعلى جميع العقول . . فهو المحيط الذي لا يحاط
 به . . سبحانه هو البديع في كل ما خلق وأنشأ وصور . .
 وما أبدع وأحكم ما صنع بهذا التاموس الذي خلق به الإنسان
 والحشرة . .



لغز الزمن في القرآن



عندها التاريخ ، وعلينا دائماً أن نذكرها ونخرج منها العبرة .

والمستقبل بالنسبة لله حدث في علمه وانتهى وكل ما سوف يأتي في الغد القريب والبعيد بالنسبة لله تحصيل حاصل . . ولهذا نجد الله يصف أحداث يوم القيامة بالفعل الماضي مع أنها مستقبل .

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا » .

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » .

٦٨ - الزمر

« وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا » .

١٦ - الحاقة

« وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ »

٩١ - الشعراء

« وَعَرَّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا »

٤٨ - الكهف

« وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » .

٢٢ - الفجر

« أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ »

١ - النحل

كل تلك الأحداث المستقبلية يصفها الله بالفعل الماضي ، وذلك لأن الله متعال فوق الزمان والمكان وهو قد أجرى الزمن على مخلوقاته ولكنه تنزه سبحانه عن جريان الأزمنة عليه . . فكل شيء بالنسبة لعلمه قد حدث .

ثم نفهم من بعض ما كشف القرآن من أسرار أن الله أقام لكل نوع من مخلوقاته زمناً مختلفاً . فالروح وهو ملك عظيم مقرب يومه بخمسين ألف سنة من زماننا . . نفهم ذلك من الإشارة القرآنية .

« تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

٤ - المعارج

بينما الملائكة الآخرون (ملائكة التدبير والتصريف) يومهم بألف

سنة من زماننا . . فيصف القرآن أحد هؤلاء الملائكة المدبرة .

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » .

٥ - السجدة

وفي إشارة أخرى يتكلم عن هؤلاء الملائكة (ملائكة العندية الذين عند ربك) .

« إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » .

٤٧ - الحج

فإذا مات الإنسان وبعث فإنه يخرج من تقويم زمني إلى تقويم زمني آخر ، ولذلك يخيل إليه أن ألاف السنين التي لبثها في القبر وفي الدنيا كانت يوماً واحداً أو ساعة زمان .

« وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

٥٥ - ٥٦ - الروم

وفي آية أخرى :

« كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ »

٣٥ - الأحقاف

يقول الله إن هذا بلاغ مني أخبركم به من الآن عن هذه المفاجأة التي سوف تصدمون بها يوم البعث .

وفي آية أخرى يصف تصور الكفار للسنين التي عاشوها في الدنيا . .

وكانها ساعة . .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ » .

٤٥ - يونس

ويسأل السائل هؤلاء الخلق المبعوثين .

« كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » .

١١٢ - ١١٣ - المؤمنون

إن أحقاب اللبث الطويل في الأرض وفي الدنيا تبدو لحظة البيث وكأنها كانت يوماً أو بعض يوم أو ساعة لأن الإنسان ينتقل من تقويم زمني إلى تقويم آخر مختلف تماماً (اليوم فيه ربما بألف سنة أو بخمسين ألف سنة) .

ونحن نستطيع أن نفهم الآن قضية تعدد الأزمنة في ضوء النظرية النسبية والعلم الحديث . فالقانون العلمي يقول لنا الآن إن كل نظام حركي له تقويم زمني خاص به ، فالشمس وكواكبها نظام حركي له زمنه الخاص به ، فإذا خرج رائد الفضاء من أقطار هذا النظام الحركي وذهب إلى مجموعة نجمية في مجرة أخرى فإنه يدخل في تقويم زمني مختلف مستمد من نظامه الحركي الجديد . وهذا القانون يفسر لنا اختلاف التقويم الزمني بين البشر والملائكة وبين الملائكة الأرضية والملائكة المقربين .

ثم يعلمنا القرآن أن الله قاهر على الزمن يستطيع أن يقبض المائة سنة عن مخلوقاته فتصير يوماً أو يمدها فتكون مائة سنة دون أن تبرح مكانها ودون أن تغير نظامها الحركي . . وتلك هي المعجزة التي أجراها على نبي التوراة عزرا الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه .

ويصف القرآن القصة قائلاً :

« أَوْ كَأَلَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظَرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ كَمْ تَسْتَسْئِرُ وَأَنْظِرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظِرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَنْشُرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

٢٥٩ - البقرة

وما حدث أن الله قبض المائة سنة عن طعام عزرا فاحتفظ بصلاحيته ولم يتلف ولم « يتسنه » ، وكأنما لم يمر بالنسبة له زمن بينا مد الزمان للحمار فهلك وتحلل وأصبح رمة ثم أعاد الله تركيبه وبعثه حياً أمام عزرا .

وهي آيات تكشف عن سلطان الله القابض الباسط للزمان دون تقيد بنظام حركي أو مكان .

وهو نفس ما حدث بالنسبة لأهل الكهف الذين قبض الله عنهم الزمن فمرت بهم ثلاثمائة سنة وهم نيام لا يطرأ عليهم طارئ .

« فَفَصَّرْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » . ١١ - الكهف
« وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلِّبُهُمْ بِأَسْفُلٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ لَوَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلَّمَيْتُ مِنْهُمْ رُجْبًا » . ١٨ - الكهف

« وَكَلِّبْنَا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » .

٢٥ - الكهف

وعندما ايقظهم الله وتكررت نفس الظاهرة .

« قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » .

١٩ - الكهف

لأنهم خرجوا من القبض الزمني إلى البسط الزمني فاختلقت أمامهم المعايير واشتبه عليهم الأمر .

ثم نقرأ في القرآن إشارة أخرى تكشف لنا سرّاً آخر من أسرار الزمان وترينا علاقة الخالق بالأزمنة المتعددة التي يخلقها فتصف سورة الرحمن علاقة الله بخلقه .

« يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » .

٢٩ - الرحمن

فالله بالرغم من تعاليه ومفارقة بالرتبة والمنزلة لخلقه إلا أنه بلفظه وعنايته معهم جميعاً على اختلاف وتفاوت أنظمتهم الزمنية . فالكل يسأله . . أهل السموات ويومهم بألف سنة ومنهم من يمتد يومه إلى خمسين ألف سنة وأهل الأرض ومنهم البشر ويومهم أربع وعشرون ساعة ومنهم مخلوقات متناهية في الصغر في نواة الذرة يومها جزء من مائة مليون جزء من الثانية . . والكل يسأل الله . . والله معهم جميعاً يستجيب لهم جميعاً سواء من دق يومه إلى اللاشيء أو طال إلى أبدية لا يشغله شأن عن شأن وإنما يعين الكل ويحيي الكل في ذات الوقت وذات الآن .

« يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » .

٢٩ - الرحمن

فسبحان من لا يشغله أن عن آن ولا شأن عن شأن .

ونحن كبشر يمكن أن يكون لنا تذوق وفهم لهذه المراتب الزمنية ذات التقويم المتعدد حتى من قبل أن نخرج من دنيانا بالموت . . فالواحد منا يشعر أنه يمكن أن يحيا في زمن اللحظة والساعة وهي حياة الشهوات والزوات والمنافع العاجلة والمشاعر المادية الغليظة والواقع الأرضي الفج ،

وتلك هي حياة القلق والتوتر والفرح الوحشي والندم القاتل والقوت الباعث للحسرة وذلك لأن « الآن » متفلة « واللحظة » هاربة والحياة معها تكون طراداً مستمراً وقلباً دائماً وكدحاً دائماً في سبيل لا شيء ، وتلك هي حياة الشهوانيين الذين يصطرون ويقتلون ولا يعرفون للسكينة طعماً ولا للهدوء حالاً فهم حطب لنار الشهوات في الدنيا وحطب لنار جهنم في الآخرة .

ويمكن للإنسان أن يعيش أيضاً في مرتبة أعلى فيخرج من زمن الشهوة إلى زمن العقل ويعيش في تأمل وسكينة وهديء .

كما يمكن أن يرتفع إلى منزلة أعلى فيعيش كالصوفية في تسرد روحى مع الواحد وذلك بالخروج تماماً من هموم الدنيا ورغباتها وترك عالم التعدد والشتات إلى جمعية قدسية مع الله فيشم رائحة الجنة وهو ما زال على الأرض .

وذلك يعطى إدراكاً تقريبياً للأمر بالتذوق كما تعرف الأشياء بروائحها قبل أن تباهر بالأكل .

جعلنا الله وإياكم من أهل التذوق حتى نعرف الحقائق ذوقاً وشهوداً وندرك الأمور على ما هي عليه قبل أن نفاجأ باليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون . . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . . يوم تنتهى المعذرة وتشخص الأعمال حاضرة . . لا تنفع فيها تذكرة .





من يقرأ التراث اليهودى يشعر أن جميع المؤامرات على الأديان
وجميع الانقلابات المخربة والثورات على القيم والمبادئ خرجت من هذا
التراث . . وأن كل معول هدم كان وراءه توجيه يهودى .

ودعونا نتأمل هذه الوصايا التى تفيض بها صفحات التلمود والبروتوكولات
تذكروا أن الشعب الذى لا يهلك غيره يهلك نفسه .

• يجب أن نخلق الجيل الذى لا ينجل من كشف عورته (ألا تفسر
لنا هذه الجملة موجة العرى فى الأفلام والموضات التى تسود العالم الآن) .

• علينا أن نشعل حرباً بين الشعوب ونضرب الدول بعضها ببعض
فهذا يصبح جميع المتحاربين فى حاجة إلى أموالنا فنفرض عليهم شروطنا .

• الجماهير عمياء فاشتروها بالمال وسوقوها كالبهائم إلى أهدافكم .

• سيطروا على الانتخابات ووسائل الإعلام والصحافة (وهم
قد سيطروا عليها بالمال والجنس والمرأة فى الغرب الرأسمالى والحزب والسلطة
فى العالم الاشتراكى) .

• ادفعوا الجماهير العمياء إلى الثورة وسلموهم مقاليد الحكم ليحكموا
فى غوغائية وغباء (وقد فعلوا هذا فى الثورة الفرنسية) وحينئذ نأتى نحن
ونعدمهم فنكون منقذين للعالم (وقد أعدموهم جميعاً من روبيبير إلى ميرابو) .

• ارفعوا شعار الحرية واهدموا بها الأخلاق والأسرة والقومية والوطنية .
 • ارفعوا شعار العلم واهدموا به الدين . . وهذا ما فعله كمال أتاتورك (حفيد مزراحي) حينما أقام الدولة العلمانية في تركيا ووقف يخطب في البرلمان التركي عام ١٩٢٣ ساخراً من القرآن .
 نحن الآن في القرن العشرين ولا نستطيع أن نسير وراء كتاب تشريع يبحث عن التبن والزيتون .

• الذى يعرقل مؤامراتكم أوقعوه في فضائح ثم هددوه بكشفها (وقد فعلوها في وتروجيت) أو في مآزق مالية ثم تقدموا لإنقاذه (وقد فعلها ذرائيل مع الخديو واستولى على القنال) . . وإذا تعذر الأمر سارعوا إلى اغتياله (وقد فعلوها بكيندى) ثم اقتلوا قاتله لتدفنوا أسرانا معه إلى الأبد (وقد فعلوها بقاتل كيندى) .
 • اقتلوا القوميات والوطنيات بالدعوة إلى الأمية والمواطنة العالمية وقد فعلها ماركس في الشيوعية .

• كل ما عدا اليهود حيوانات ناطقة سخرها الله في خدمة اليهود .
 واليهودية ترى أن الله واحد ولكنها تحتكره لنفسها فلا عمل لله إلا الحفاظ على إسرائيل وتسخير جميع الشعوب لخدمتها .
 واللاهوت اليهودى لا يؤمن بآخرة ، وقد شطبوا كل ما جاء عن الآخرة في التوراة . . والقيامة عندهم هي قيامة دولتهم في فلسطين والبعث بعثها والنشر نشرها . . ويوم الحساب هو اليوم الذى يحاسبون فيه كل الأمم يوم يعود المسيح ويباركهم ويختارهم نواباً له في حكم العالم وإقامة ملكوت الله على الأرض . . والعجيب أنهم كفروا بالمسيح حينما جاء ثم أعلنوا إيمانهم بعودته وشرطوا هذه العودة بأنها رجعة من المسيح ليختارهم

رؤساء وحكاماً للعالم إلى الأبد .

والفكر اليهودى يلقى غلالة من الأسرار والطلاسم والكتمان والغموض على كل شيء . . والكبالات والسحر وعلم الأعداد والحروف وتسخير الشياطين من علومهم التى شغفوا بها وروجوها ونشروها .

وكانت وسيلتهم إلى هدم الكتب الساوية هى تفسيرها بالتأويل وذلك برفض المعانى الظاهرة واختراع معان باطنية تهدم الغرض الدينى وتفسد هدفه .

ونستطيع أن نرى أثر التوجيه اليهودى في الفلسفات العبية والعلمية والمادية والفوضوية والإباحية . . وأحياناً نلمح أسماء يهودية خلفها مثل : سارتر - فرويد - ماركس - ماركوز .

وإذا فتحنا ملف الديانة البهائية فإننا نجد أثر التوجيه اليهودى واضحاً في كتبها .

عبد البهاء تأليف سليم قبعين القاهرة مطبعة العمران ١٩٢٢ .

بهاء الله والعصر الجديد بروفورج . أ . اسلمنت .

مفاوضات عبد البهاء الطبعة الأولى ١٩٢٨ م . موعود كل الأمم .

جورج تاووزن مطبوع بإذن من المحفل الروحاني لمصر والسودان .

وتلتقط العين سطوراً عديدة في هذه الكتب توحى بمصادرها المرية . .

أمثال :

• أكثر فلاسفة اليونان تعلموا الحكمة من بنى إسرائيل .

• رسالة عبد البهاء هى توحيد المسلمين والنصارى واليهود وجمعهم على أصل نواميس موسى .

• عمل موسى لا يساويه عمل في التاريخ وسوف يأتي يوم لا يجد

• وتقسّم البهائية السنة إلى ١٩ شهراً وتفسر القرآن بالتأويل ، فترى أن معجزة عيسى كانت إحياء النفوس وليس إحياء الأجساد كما أن موسى لم يشق بحراً بعصاه وإنما شق الحق من الباطل بعصا الشريعة ، كما أنه لا وجود للملائكة ولا للشياطين وإنما هي أسماء للخواطر الخيرة والخواطر الشريرة . . وبذلك تلغى معنى المعجزة وتنكر الغيب .

• كما نقرأ في كتاب موعود كل الأمم صراحة أن الدين البهائي جاء لإعلان دولة دينية جديدة من شأنها أن تحتم الأديار السابقة وتعطل شعائرها وكتبها ونظمها .

وكما نلمس أثر التوجيه اليهودي وأثر الفلسفات الباطنية القديمة في الديانة البهائية كذلك نلمس تلك الآثار في جمعية السبتيين والمورمون وقديسى الأيام الأخيرة والخمسينين وجماعة شهود يهوه .

وقد بدأ شهود يهوه في أمريكا باسم جمعية جلعاد . . ثم جمعية تلاميذ التوراة ثم انتشرت في الوطن العربي باسم جمعية شهود يهوه . ومن أبرز أعضائها تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية . وتقول الجمعية إن العالم منذ ستة آلاف سنة في خلاف مع يهوه (الله) وإنه قد حل الألف السابع وجاء دور الملكوت وهي الحياة في وفاق مع الله . . وأخذ يهوه يساعد الذين اختارهم منذ الأزل ليسحق بأيديهم الأنظمة المنظورة ليقم مملكة تحلّد بخلود الأرض ويجعل الأرض فردوساً ويدمر جميع الأسلحة بعد معركة مرجدون (وهرمجدون كلمة ذكرها يوحنا اللاهوتي في سفر الرؤيا واعتبرها شهود يهوه رمزاً لمعركة فاصلة تقوم بعدها مملكة اليهود المدعومة الجيران) .

وهم لا يؤمنون بقيامة للإنسان بعد موته ولا قيامة إلا قيام مملكة إسرائيل

الناس كتاباً يتقدمهم إلا نواميس موسى .
ويطلق عبد البهاء على نفسه اسم (غصن) مشيراً بذلك إلى ما جاء في التوراة (ويخرج غصن من جذع يسي أي ذرية داود يرفع العلم الإلهي على جميع الأمم) .

• وجميى بهاء الله في البهائية هو تعمير أورشلهم حيث يستقبل مرفا حيفا ألوفاً من الرجال والنساء .

وقد أبطل عبد البهاء فكرة الجهاد الإسلامية واعتبرها منسوخة كما أبطل الشريعة الإسلامية وقال في الصفحة ٦٤ من كتاب مفاوضات البهاء لم يبق لتلك الشريعة حكم ، ولهذا لا نعجب إذا رأينا القائد الإنجليزي يمنح عبد البهاء وساماً يعبر عن شكر الإمبراطورية البريطانية له حيناً قابله في حيفا عام ١٩١٧ .

ولهذا أقبل اليهود على البهائية منذ تأسيسها وحملوا رايتها . . ورأينا بعضهم يعيش العمر كله بهائياً ثم يوصى أن يدفن حين يموت في مدافن اليهود .

(كتاب البابية والبهائية لمحمود الملاح)

ونرى وجه الشبه واضحاً في ترجمة « استير » التي نقرأ عنها في التوراة وترجمة « قرة العين » التي نراها في كتب البهائية وكتناهما مثلت دوراً متشابهاً في بلد واحد .

• وقد دعا عبد البهاء إلى عقيدة التجسد وزعم نفسه إلهاً متجسداً وقال في كتابه إلى أخيه يدعوه فيه إلى الولاية . . (هذا كتاب من الله المهيمن الحي القيوم إلى الله المهيمن الحي القيوم) صفحة ٣٧ الطبعة الثانية من كتاب البهائية . عبد الرزاق الحسني صيداً مطبعة العرفان ١٩٣٠ .

ولا بعث إلا بعثها ، أما خلود الروح فهو خرافة روجتها بابل الزانية .
 ويعود المسيح ليسلم الحكم للقطع الصغير (اليهود) أما الخطيئة
 الأصلية فقد انتهى مفعولها منذ أن بدأ نشاط تلاميذ التوراة (وهم ذررائي
 وهرتزل وحاييم ويزمان وغيرهم) وفي « الماسونية » نشاهد أثر التوجيه اليهودي
 أوضح وأظهر . نلاحظ هذا في الرموز وكلمات السر الماسونية مثل :
 بوغز (وهو أحد أجداد سليمان كما تقول التوراة سليمان بن داود
 ابن عيسى بن عوبيد بن بوغز) .

ياكين أو جكين : وهو ابن شمعون في التوراة .

الرقم ٣ : وهو رمز ليهوه وموسى وهارون .

الهيكل : رمز هيكل سليمان .

عصا المرشد : رمز لعصا هارون التي زرعت فأثمرت لوزاً كما جاء
 في سفر العدد .

كلمة ماك بناك : أي انسلخ اللحم من العظم رمزاً لانسلاخ الأتباع
 من أوطانهم وقومياتهم وأديانهم .

الميزان والخنجر : رمز بناء الهيكل بالعدل أو القوة .

نوخابيلم أدوناي : من مثلك يا إله الآلهة بالعبرية

نقام : نقام : الانتقام الانتقام .

والماسونية تدعى في البداية احترام الأديان والقوميات وتضع المصاحف
 والأنجيل إلى جوار التوراة ليقبلها الأتباع وإذا سأل المسيحي عن الرقم ٣
 قالوا هو الأب والابن والروح القدس ، وإذا سأل المسلم قالوا هو الله ومحمد
 والقرآن وإذا سأل الهندوسي قالوا هو البراهما وشيفا وفشنو يخاطبون كل واحد
 حسب عقيدته .

ولكن حينما يترقى الطالب ويبلغ أعلى الدرجات ويتم تجنيده وترويضه
 وغسل دماغه من الأفكار القديمة ترفع المصاحف والأنجيل ولا تبقى إلا
 التوراة ويلقن الطالب المواثيق الغليظة فيقال وعلى رقبته السيف : أقسم
 أن أقطع الروابط والصلات التي تشدني للأقارب والأشياء والعصبيات
 والأرحام والأديان وكل ما حلفت له بالطاعة لارتبط أولاً وأخيراً بإخواني
 الماسون ادافع عنهم وأنقذ مسجونهم وأناصرهم حتى ولو أتوا منكراً .
 وفي درجة أعلى يلقن قسماً أشد .

أقسم على التوراة التي آمنت بها وبأنها الكتاب الإلهي الذي لا قبله
 ولا بعده وأقسم بجلال النور الذي تجلي على جبل الطور أن أبذل آخر
 قطرة من دمي في سبيل بناء دولة موسى الكبرى وأعمل لهدم جميع العقائد
 الأخرى التي فرضها الغاصبون من الأمم وأوقع هذا العهد بدمي أمام الرؤساء
 الجالوتيين الحاضرين .

وتحاول الماسونية دائماً استقطاب القادة والزعماء والأمراء والفنانين
 والكتاب وذوى النفوذ لتستخدمهم فيما بعد كأدوات في مخططها .

وتبدأ الدرجات الماسونية من الواحد وهو الطالب المبتدئ إلى
 ١٨ وهو الفارس الحكيم إلى العارف إلى القدوس حتى الدرجة ٣٣ وهو
 « الرفيع » وليس بعدها إلا « الملك » وهي الدرجة التي بلغها هيلاسلاسى
 وقد زعموا له أنه من سلالة رجبعام بن سليمان . . ولا يعلو تلك الدرجة
 إلا المخفل الكوني المؤلف من ١٢ هم الأسباط الاثنا عشر أو أقطاب الجلال
 كما يسمون أنفسهم ومكانهم تل أيب . . وهم الذين يوجهون عالم العميان
 والحيوانات الناطقة من غير اليهود .

وعلاقة الفكر المادى والقوضوية والعشبية والفرويدية بالتوجيه

اليهودى واضحة وقد حللتها في كتب سابقة (انظر الماركسية والإسلام) .

ومن طرق الترييف الشائعة الآن إلباس الأفكار الماركسية طرحة إسلامية وإعلان البراءة من ماركس في العلن ومزاولة أفكاره ومخططه في الحقيقة .

ولقد كان القرآن على حق فيما وصم به اليهود وفيما صب عليهم من غضب ولعنات .

« فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » ١٦٦ - الأعراف
« قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِبَشَرٍ مِنْ ذَلِكَ مُتُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَذَابِ عَلَيْهِ وَجَعَلْ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدِ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ » . ٦٠ - المائدة

وفيا وصفهم به من علم وتفوق وامتيان :

« وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » . ٣٢ - الدخان

وفيا وصفهم به من كبر :

« إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ » . ٥٦ - غافر

وفيا وصفهم به من جبن :

« لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ » .

١٤ - الحشر

وفيا وصفهم به من تحريف الكتب :

« وَقَدْ كَانَ قَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » . ٧٥ - البقرة

« يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا

بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » .

٧٩ - البقرة

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » . ٧٨ - آل عمران

ووصفهم بالمادية وجب المال والتمسك بالحياة :

« وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ (العجل الذهب) بِكُفْرِهِمْ » ٩٢ - البقرة
« وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » ٩٦ - البقرة

وبممارسة السحر :

« وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكِيِّنَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَأْرُوتَ » . ١٠٢ - البقرة

وبقتل الأنبياء :

« وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بَآئِهِمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » . ١١٢ - آل عمران

وبنقض المواثيق وبالربا وأكل الحرام :

« فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً » . ١٣ - المائدة
« سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ » . ٤٢ - المائدة

وبجراتهم على الله :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ

مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» .

٦٤ - المائة

وبالفساد والإفساد وإشعال الحروب :

« وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا
لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » .

٦٤ - المائة

وبإخفاء العلوم والكتب :

« قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ
قَرَاتِهِمْ تَبَدُّوْنَهَا وَيَنْخِفُوهَا كَثِيرًا » .

٩١ - الأنعام

ثم أوعدهم بسوء الخاتمة

« فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَتَّبِعُوا (أى يحطموا) مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا » .

٧ - الإسراء

صدق الله العظيم

وشهد على صدقه التاريخ فيما مضى كما سوف يشهد فيما تأتى به الأيام

من سوء الخواتيم .

علم نفس قرآنى





المؤمنون أهل حلم وصبر وتواضع وتسامح وحياء .
« يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » .

٦٣ - الفرقان

تعرفهم بطول الصمت وتواصل الفكر وتخفيض الصوت والبعد عن
الهرج والصخب والتلاعن .

وتعرفهم بالتأني والإتقان والإحسان فيما يعهد إليهم من أعمال ،
وتعرفهم بالدماثة ولين الطبع والصدق والوفاء والاعتدال في الأخذ من كل
شيء .

وإذا كان لا بد من اختيار صفة واحدة جامعة لطابع المؤمن
لقلت هي : السكينة ، فالسكينة هي الصفة المفردة التي تدل على أن
الإنسان استطاع أن يسود مملكته الداخلية ويحكمها ويسوسها .

وهي الصفة المفردة التي تدل على انسجام عناصر النفس والتوافق
بين متناقضاتها وانقيادها في خضوع وسلاسة لصاحبها وهو أمر لا يوهب
إلا للمؤمن .

وأنت تقرأ هذه السكينة في هدوء صفحة الوجه . . ليس هدوء
السطح بل هدوء العمق . . هدوء الباطن . . وليس هدوء الخواء ولا سكون

البلادة ، وإنما هدوء التركيز والصفاء واجتماع الهمة ووضوح الرؤية . .
وكأنما الذى تراه أمامك يضم البحر بين جنبيه .

والبحر ساكن ولكنه جيشا يطرح اللآئى والأصداف والمرابحين
من أعماقه لحظة بعد لحظة ، فهو غنى الغنى اللانهائى .

وهذه خاصية المؤمن . . ذلك الهدوء المشع الثرى . . لماذا . . ؟؟؟ !
لأن علاقة المؤمن بما حوله علاقة متميزة مختلفة . . علاقته بالأمس
والغد . . وعلاقته بالموت . . وعلاقته بالناس . . وعلاقته بعمله ونظرته
للأخلاق .

فالأخلاق بالمعنى الواقعى وبالمعنى الفلسفى هى أن تشبع رغباتك
بما لا يتعارض مع حق الآخرين فى إشباع رغباتهم هم أيضاً ، فهى
مفهوم مادى اجتماعى بالدرجة الأولى وهدفها حسن توزيع اللذات .

أما الأخلاق بالمعنى الدينى فهى بالعكس أن تقمع رغباتك وتخضع
نفسك وتخالف هواك وتحكم شهواتك لتحقيق برتبتك ومنزلتك العظيمة
كخليفة عن الله ووارث للكون المسخر من أجلك . . فأنت لا تستحق
هذه الخلافة والسيادة على العالم إلا إذا استطعت أولاً أن تسود نفسك
وتحكم مملكتك الداخلية . . ومفهوم الأخلاق هنا فردى وهدفه بلوغ الفرد
درجة كماله وإن كانت هناك ثمرة اجتماعية فإنها تأتى بالعبودية . .
فالمجتمع الذى يتألف من مثل هؤلاء الأفراد لا بد أن يسوده الوثام والسلام
والمحبة . .

والأخلاق بهذا المعنى خروج من عبودية النفس إلى مرتبة عليا
هى الجمعية مع الرب . . خروج من الجزء إلى الكل . . من النسبى إلى
المطلق من الرغبة فى شىء مادى إلى الرغبة فى حضرة الإله حيث يجب أن

تطلع كل العيون . . وهذا لا يمكن أن يتم إلا إذا تم تصحيح وتكميل بصر
العين فأصبحت ترى كل شىء بحقيقة حجمه ونسبته لا تحجبها لذة
دنيوية عن رؤية الكمالات الإلهية .

ولهذا تبدأ الأخلاق الدينية بمجاهدة الشهوات حتى تحكمها
وتخضعها . . ولا تبدأ بالتسليم لها وبإشباعها كما فى الأخلاق الشائعة ،
فهى ليست دعوة إلى حسن توزيع اللذات وإنما هى دعوة إلى الخروج
من أسر اللذات ، وهكذا تفترق النظرتان تماماً ، وتؤدى كل منهما إلى
إنسان مختلف .

فالإنسان المادى يستهدف التزوة واللذة الفورية والمقابل المادى
العاجل (لأنه لا يعتقد فى وجود شىء وراء الحياة الدنيوية) ، وهو
لهذا يجرى وراء «اللحظة» وينشئ «بالآن» ، ولكن اللحظة متقلبة
«والآن» هارب والقوت والحسرة تلاحقانه فى أعقاب كل خطوة يخطوها
وهو متروك دائماً وفى حلقه غصة وفى قلبه ندم وكلما أشبع شهوته ازدادت
جوعاً . . وهو يراهن كل يوم بلا ضمان وبلا رصيد فهو محكوم عليه بالموت
لا يعرف متى وكيف وأين ، فهو يعيش فى قلق وتوتر مشتمت القلب متوزع
الهمة بين الرغبات لا يعرف للسكينة طعاماً حتى يدهمه الموت رغم أنه .

أما الإنسان المؤمن فهو تركيب نفسى مختلف وأخلاقية مختلفة
ورؤية مختلفة . . فهو يرى أن اللذات الدنيوية زائلة ولا تساوى شيئاً
وأنها مجرد امتحان إلى منازل ودرجات وراءها وأن الدنيا مجرد عبور إلى
تلك المنازل والدرجات الباقية . . وأن الدنيا كالحيال وأن الله هو الضمان
الوحيد فى رحلة الدنيا والآخرة . . وأنه لا حاكم ولا مقدر سواه . . لو اجتمع
الناس على أن يضروه لما استطاعوا أن يضروه إلا بشىء كتبه الله عليه ،

وإن اجتمعوا على أن ينفعوه لما استطاعوا أن ينفعوه إلا بشيء كتب الله عليه . .
ولهذا فهو لا يفرح لكسب ولا ييأس على خسران ، وإذا دهمه ما يكره . .
قال في نفسه :

« . . وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ
لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »
٢١٦ - البقرة
والله عنده حكم عادل رحيم لا يقضى بالشر إلا بسبب ولحكمة
ولفائدة أو استحقاق عادل .

وهو يقا تل ثابت القدم أمام الموت ، وهو يتغنى :

« أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ » .

٧٨ - النساء

« قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ » .

٨ - الجمعة

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا » . ١٤٥ - آل عمران

وهو لا يحسد أحداً ولا يغبط أحداً ، بل هو مشفق على الناس

مما هم فيه من غفلة يقول له قلبه :

« لَا يَغْرُنَكَ تَقَلُّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » .

١٩٦ - ١٩٧ - آل عمران

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّاءٍ وَبَيْنَ . نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ
لَا يَشْعُرُونَ » .

٥٥ - ٥٦ - المؤمنون

« إِنَّمَا نُمَلِّئُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » .

١٧٨ - آل عمران

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ
قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ
وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » . ٢٢ - ٢٣ - الحديد

٥١ - التوبة

« قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا » .

ثمررة تلك الآيات عند المؤمن بها هي السكينة والهدوء النفسى وتطامن

البال والثقة فى حكمة الله وعدله ورحمته وتصريفه .

ومثل هذا المؤمن كلما ترك شهوة من شهواته وجد عوضاً لها حلوة

فى قلبه مما يلقى من التحرر الداخلى من أغلال نفسه ومما يجد من النور

فى بصيرته .

وهو يترك السعى إلى الحظوظ للسعى إلى الحقوق ويترك الدعاوى

إلى الأوامر .

ويترك أهواء النفس إلى وجه الحق .

ويكف عن التلهف والحركة وراء الأغراض والمناصب والرياسات

والمغانم ويسكن إلى جنب الله . . وهل بعد الله مغنم .

وهو مدرك بأن الجمعية مع الله لا يدانها كسب فألى جانب اللات نهاية

تصحح جمعية الأعداد صفراً .

ومن صفات هذا المؤمن العامل لوجه الله أنه ناهض بالهمة على الدوام

لا يفتر ولا يكسل ولا يتواكل بينا يفتر من يعمل للأجر ويفتر من يعمل

للخوف (يخدع الأول نفسه بالاستكفاء ويخدع الثانى نفسه بالتمنى) أما

القاصد وجه ربه فإنه لا يفتر لأنه لم يربط جهاده بأجر وهو لا يكسل

متواكلا على مغفرة لأنه لا يتحرك بالخوف من عقاب وإنما هو عبد عاشق

محب متطوع يعمل وهو يغنى لأن العمل عنده سعادة ولهذا لا تجده أبداً

متبرماً ولا متسخطاً وإنما هو دائماً طلق الوجه مشرق البسمة متفائل حماد

لربه فى جميع الحالات لا يسب الدهر ولا ينسب لربه نقصاً ولا قصوراً .

وهذه التركيبة النفسية النادرة هى ثمرة الإيمان بالقرآن وهى ثمرة التوحيد .

والتوحيد يجمع عناصر النفس ويوحد اتجاه المشاعر نحو مصدر واحد للتلقئ فيؤدى بذلك إلى أثر تركيبى بنائى فى الشخصية يعكس تعدد الآلهة وتعدد مصادر الخوف والنفع والضرر فإنه يؤدى إلى توزع المشاعر وانقسام النفس وتشتت الانتباه إلى عديد من الجهات ، ويؤدى بذلك إلى تفكيك رباط الشخصية .

والقارئ للقرآن الكريم يخرج بعلم نفس قرآنى متميز بديع ومتفرد فى تربيته للمسلم .

وليس عجباً أن القرآن أقام حضارة وصنع تاريخاً . فإنه قبل ذلك قد أقام إنساناً وربى نفساً بديعة سوية متفردة فى تكاملها وأشرق عليها بسكينته لا مثل لها .

ومثل تلك التربية الفذة تشهد للقرآن بأنه خرج من المشكاة الإلهية .

فلا مرب مثل الرب .

وقد ظهرت محاولات عديدة لفهم النفس فهماً جديداً مؤسساً على القرآن والسنة ، آخرها وأهمها كتاب الدكتور حسن الشرقاوى « نحو علم نفس إسلامى » وهو نظرة نقدية شاملة لعلم النفس الحديث ومحاولة للخروج بعلم نفس إسلامى جديد .

ويعرض الكتاب فى أمانة وجهتى نظر العلم والدين فى ذلك اللفز الذى اسمه النفس ويدعو القارئ ليفكر معه خطوة بخطوة ويأخذ بيده برفق إلى الحقيقة .

إن علماء النفس لا ينظرون إلى النفس إلا من خلال العيوب والأمراض والآفات والعلل . . ولا يفتشون إلا فى الانحرافات والتشوهات والعقد ولا يقدمون لنا شيئاً إيجابياً عن النفس السوية الصحيحة . . والمنبع

الوحيد للسلوك عندهم هو إشباع شهوة . . والمرجع الرئيسى الذى يفسر به فرويد جميع التصرفات هو عقدة أوديب وعقدة الكترا . . وهى شهوة الطفل فى أن يجامع أمه وشهوة البنت فى أن تجامع أباه . . وهى هلوسة سمعها من مرضاه المستيريين فجعل منها همة عامة ألصقها بالكل ، ومن هنا كان الإحساس بالذنب عند فرويد مرضاً . . والتوبة نكوصاً . . والندم تعقيداً . . والصبر على المكارة برداً . . وقمع الشهوات كتباً له عواقبه الوخيمة .

بينما نرى الدين يقف على التقيض من هذه النظرة . . فيعلمنا أن قمع الشهوات هو شاهد على سلامة النفس واقتدارها وأن الإحساس بالذنب علامة صحة وأن التوبة موقف علم والندم موقف علم تدل جميعها على فطرة سوية أدركت . الله وعرفت أنه دائماً مع الحق والعدل والخير .

ولا يرى الدين أن النفس محض فجور بل يصفها بأنها قابلة للفجور وللتقوى وأن الله ألهمها فجورها وتقواها معاً فهى تستطيع أن ترتقى فى معراج نورانى نحو الله أو أن تنهبط سفلياً فى درك الشهوات . . وهى فى ذلك مخيرة . . وكل إنسان يتصرف على شاكلته .

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ » . ٨٤ - الإسراء

• ويتوسع فرويد توسعاً معيماً فى حكاية الجنس والطاقة الجنسية Libido واللذة الجنسية ، ويتصور أن الرضيع يمتص حلمة ثدى أمه بلذة جنسية (وهو كلام غير مفهوم ، فالرضيع لم يباشر هذه اللذة بعد بحكم تحلف جميع أجهزته ، وهو بالتالى غير قادر على تذوق هذه اللذة) .

كما يتصور أن الصبى يحبس البراز فى شرجه بلذة جنسية (وهو يستبدل هذه اللذة حيناً يكبر بهوايات جمع الأشياء مثل جمع طوابع البريد) .

كما يتصور كل ما هو مستدير في الحلم رمزاً لعضو المرأة التناسلي (مثل الكهف والدائرة والعلبة والخاتم والحلق والزجاجة) وبالمثل كل ما هو مستطيل رمزاً لقضيب الرجل (مثل العصا والثعبان والقلم والمثدنة والبرج والسيف والمظلة) وكل حركة في الحلم هي رمز للعملية الجنسية (كالجري والتسلق والسباحة وركوب الدراجة) .

ثم هو يدمج كل أنواع الحب حتى حب الوالدين وحب النفس في هذه الحلقة الجنسية المفرغة ، فحب الأم (عقدة أوديب) وحب الأب (عقدة الكترا) وحب النفس (نرجسية) . . . وكأنما هي لعنة تمازج كل فعل . . فلا براءة في أي شيء . . ولا طهارة في أي خاطر أو أي فكرة .

وهي مبالغات أقل ما يقال فيها إن صاحبها مريض بهوس جنسي .

• ولا يرى فرويد من الأحلام إلا هذا الجانب الجنسي الحسي الشهواني ، فالأحلام كلها إشباع لرغبات مكبوتة وهي تحرس النوم بهذا الإشباع المتجدد الذي يريح النفس من أشواقها الملحة فتسترسل في نومها .

وفرويد وأصحابه لا يرون بذلك إلا نوعاً واحداً من الأحلام وجانباً واحداً من النفس هو الجانب المادى الحيوانى .

أما القرآن ، فيعلمنا أن هناك نوعين من الأحلام . . نوعاً يطلق عليه « أضغاث الأحلام » وهو حديث النفس الأمانة بشهواتها ورغباتها أو حديث الشياطين إلى تلك النفس أثناء النوم . . وهو ما اشتغل فرويد بتفسيره .

ثم نوع آخر من الأحلام هو الرؤى التي تأتي إلى النفس . . من

الملا الأعلى . . وتكون حديثاً من الله إلى نفس النائم أو حديثاً من الملائكة المكلفين إلى تلك النفس . . ومثال ذلك الرؤى الصادقة التي تتحقق بحذافيرها ونصها .

ولا مكان لهذه الرؤيا عند فرويد . . ونظريته تعجز تماماً عن تفسيرها ، مع أنها خبرة عادية عاشها كل منا وجرب طرفاً منها . .

كما أن رؤية المستقبل قبل حدوثه هي مسألة تهدم الفكر المادى من أساسه سواء الفرويدى منه أو الماركسى لأنها إثبات صريح يؤكد سبق الفكر على المادة ، ويميز القرآن بين هذين النوعين من الأحلام ويفصل بينهما .

يقول فرعون :

« يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ » . . ٤٣ - يوسف

« قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ » .

٤٤ - يوسف

فهناك إذن أضغاث ورؤى .

ولكن فرويد لا يرى من الأحلام إلا تلك الأضغاث والهلوسة الشهوانية ، ولهذا يرى أن السعادة والراحة في إشباع تلك الشهوات بينما يرى الدين أن السعادة في مخالفتها وقمعها والقبض على زمامها والتسلق عليها عوداً إلى الوطن الأول . . إلى الله الذى منه جاءت كل النفوس وإليه تعود .

والحزن الحق في الإسلام هو نتيجة فراق هذا الوطن والانغماس في ظلمة الدنيا . .

أما الحزن عند فرويد فهو على العكس نتيجة حب الدنيا والحرمان

منها .

وينظر علم النفس الحديث إلى النسيان باعتباره مرضاً ينتج من عدم الاهتمام أو فرط الاهتمام أو كون الموضوع المطلوب تذكره موضوعاً مؤلماً أو بسبب تقادم العهد أو بسبب كبت الخبرة المنسية في اللاشعور . . والطبيب النفسى يحاول أن يصل إلى هذه الخبرة المنسية بالتحليل أو التنويم المغناطيسى أو بملاحظة المريض في أثناء تداعى خواطره .

ولكن الدين ينظر إلى الموضوع في إطار أوسع وأشمل ، هو إطار العلاقة بالله ، فمن كان قريباً من ربه ذاكراً له على الدوام كانت قدراته دائماً مكتملة وحاضرة وجاهزة لا ينسى شيئاً ولا يغيب عن باله شيء لأنه في دائرة النور . . أما البعد عن الله فيدخل صاحبه في دائرة الظلمة ويجعله من أهل الغفلة .

« نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ » .

١٩ - الحشر

وهؤلاء هم الذين يتخبطون في متاهات النسيان والحيرة والضياع .

والفرق بين نظرة علم النفس ونظرة الدين هو افتقاد علم النفس للشمول والنظرة الواسعة الكلية وسجنه لنفسه داخل إطار الخبرة المادية والدنيا المادية واللذة المادية .

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى الوسواس والخواطر فيرى أنه نبت من اللاشعور وأنه حديث النفس إلى النفس ولا يتصور أن تلك النفس تحيا في محيط آخر خفى وأنها يمكن أن تكون محلا لمخاطبة الملائكة ووسوسة الشياطين أو مكاملة الرب جل جلاله .

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى العذاب النفسى فلا يكاد يخرج من إطار الحرمان من اللذات المادية . . ولا يتصور أن العذاب الدنيوى يمكن أن يكون ابتلاء وامتحاناً من الخالق الذى خلق . . كما يفعل الحداد

بالحديد حينما يدخله النار ثم يلقى به في الماء البارد ليزداد صلابة . . أو كما يصهر الصائغ معادنه ليفرز ما فيها من ذهب وما فيها من نحاس وما فيها من خبث وتراب .

ويظل علم النفس سجيناً لهذه المحدودية وهذه الرؤية المادية الحسية لكل شيء بشكل ينتهى به إلى الخطأ في جميع أحكامه . . فهو مثل الأعمى الذى اكتفى بأن يمسك الفيل من ذيله ثم راح يصور لنفسه أن هذا الذيل هو الفيل .

ولهذا ينظر علم النفس إلى العمل في نطاق الفعل والحافز دون أن يتعب نفسه في تحليل مدى صدق وإخلاص هذا الحافز ودون أن يتخطى هدف الفعل ويسأل ماذا يريد به صاحبه . . هل يريد تحصيل المال أو الشهرة أو المجد أو الجاه عند الناس . . أو هو يعمل خالصاً مخلصاً لوجه الله . .

والفرق كبير وهائل بين العاملين . وهو أيضاً كبير وهائل بين النفسين . وفصل الأخلاق عن أهدافها هو في النهاية فصل لها عن منبعها الأصل الذى هو الدين . . فالدين وحده هو مصدر الأخلاق . . والرحمة والعلم والرأفة والمودة والكرم هى من الله . . فهو وحده الرحمن الرحيم الكريم الودود الرؤوف الحكيم ، كما تقول لنا أسماؤه الحسنى ، وهو الذى يتجلى بهذه الأخلاق على كل من يستحقها .

ولهذا يختلف علم النفس والدين في علاج الأمراض النفسية . فلا يرى علم النفس إمكاناً لتبديل النفس أو تغييرها جوهرياً لأن النفس تأخذ شكلها النهائى في السنوات الخمس الأولى من الطفولة . . ولا يبقى للطبيب النفسى دور سوى إخراج المكبوت إلى الوعى . . أو فتح

نوافذ للتنفيس والتعبير وتخفيف الغليان الداخلي . . . ويهدف الوصول إلى ذلك بلجأ الطبيب النفسى إلى العلاج بالتنويم المغناطيسى أو العلاج بالتحليل أو العلاج بالإيحاء أو بالتنفيس والتعبير والفن واللعب أو العلاج بالاستغراق في عمل آلى .

وكل هذه الصور من العلاج أشبه بعلاج السرطان بالمراهم أو المسكنات لأنها لا تحاول أن تغير من النفس شيئاً ، فكلها تقبل وجود الدميل النفسى على حاله ثم تقول للمريض . . . اصرخ أو غن أو ارقص لتنفس عن آلامك . . . أو تضع يده على الدميل وتقول له . . . هنا الدميل . . . وهذا كل جهدهم .

أما الدين فيقول بإمكانية تبديل النفس وتغييرها جوهرياً ويقول بإمكانية إخراجها من ظلمة البهيمية إلى أنوار الحضرة الإلهية ومن حضيض الشبوات إلى ذروة الكمالات الخلقية وذلك بالرياضة والمجاهدة . . . ويكون ذلك على مراحل . . . أولاً تخلية النفس من عاداتها المذمومة وذلك بالاعتراف بالذنوب والعيوب وإخراج هذه العيوب إلى النور . . . كما قال موسى لربه بعد قتل المصرى خطأ :

« رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي » .

وكما نادى يونس في الظلمات :

« لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » . ٨٧٠ - الأنبياء

والمرحلة الثانية هى التوبة وقطع الصلة بالماضى والندم ومراقبة النفس فيما يستجد من أمور ومحاسبتها على الفعل والخطا .

والمرحلة الثالثة هى مجاهدة الميول النفسية المريضة بأضدادها ، وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق وإكراه النفس الشهوانية

على التعفف ودفع النفس الأنانية إلى البذل والتضحية وحث النفس المختلفة المزهوة على التواضع والانكسار واستنهاض النفس الكسولة إلى العمل . . . وبمعالجة الضد بالضد تصل النفس إلى الوسط العدل . . . وهو صراط الحكمة . . . وهو حظ الكاملين من البشر .

ولا تنجح تلك الرياضة دون طلب المدد والعون من الله ودون الصلاة والخشوع والخضوع والفناء فى محبة الله ركوعاً وسجوداً فى توحيد كامل (وتوحيد الله لا يكون إلا بطاعته الكاملة والاسترسال معه . . . لا تريد لنفسك إلا ما يريد لك ربك ولا تطلب لنفسك إلا ما يطلبه هو لك) وهنا تحدث المعجزة . . . فيتبدل القلق سكينه والفرع طمأنينة والخسة الشهوانية عفة وطهارة . . . والنواقص النفسية كمالات .

وذروة العلاج النفسى فى الإسلام هى « الذكر » . . . ذكر الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعمل . . . واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام وطول الوقت فى كل قول وفعل .

وفى الذكر شفاء ووقاية وأمن وطمأنينة لأن الذكر يعيد الصلة المقطوعة بين العبد والرب ويربط النفس بمنبعها ويرد الصنعة إلى صانعها . . . حيث هو الأعلم بعيوبها والأقدر على علاجها .

« ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . ٦٠ - غافر

« فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » . ١٥٢ - البقرة

فيعود النور ليغمر ظلام النفس ويحل العمار مكان الخراب وتتجلى الكمالات الصفاتية الإلهية على قلب العبد الخاشع .

ويمنسا يرى فرويد الطيبة تحاذل وسلبية وينصح مريضه قائلاً له :

كل وإلا فأنت مأكول .

نرى نحن الطبية قوة وإيجابية . . ونأمر بالصفح :

٨٥ - الحجر

« فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ » .

١٠٩ - البقرة

« فَأَعْقِبُوا وَأَصْفَحُوا » .

٢٣٧ - البقرة

« وَأَنْ تَعْقِبُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » .

وبينما يختار فرويد من الأعمال ما يساعد على تفرغ وتفريغ

الغليان النفسى . . نشترط نحن العمل الصالح .

وبينما يرى أن ماضى الطفولة حاكم على كل إنسان وموجه لأفعاله لا نقول نحن بحاكم إلا الله ونقول إننا بفضل الله يمكن أن نخرج من أى حكم ونتخلص من أى حكومة ، وبينما يقول بفضة عدوانية وغيرة التحطم والهدم وغيرة الموت وبالطاقة الشهوانية كدوافع رئيسية ، نقول نحن إن الإنسان فطر حراً مختاراً بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية .

وسبب كل هذه المادية الفرويدية ومادية علم النفس الحديث بوجه عام هو تصووره للإنسان تصوراً آلياً حيوانياً خسيماً فسيولوجياً .

وهو عين ما فعله كارل ماركس حينما تصور أن التاريخ عربة تحركها المصالح المادية والقوى المادية وحدها . . وأن حركة التاريخ هى دائماً ثمرة الصراع بين طمع الأغنياء وحقد الفقراء إلى آخر ما حكيناه فى الكلام عن الصراع الطبقي .

وهذا التصور المحدود والأفق الضيق المسدود هو الذى أدى بالانثين إلى اعتساف الفروض والتخريجات . . وهو الذى أدى بالانثين إلى تلفيق ما قلاه عن النفس وعن التاريخ . . وهو الذى انتهى بالانثين إلى اعتساف الأدلة وتزييف البراهين .

وقد ظهر فشل الطب النفسى الحديث من تتبع الإحصائى للحالات التى تم علاجها نفسياً . . فقد اتضح أن معدل شفاء المرضى المصابين ثابت سواء عولجوا على طريقة فرويد أو عولجوا بطريقة أدلر أو لم يعالجوا على الإطلاق . . فمن يشفى منهم حاله كحال مريض الإنفلونزا مصيره إلى الشفاء سواء بالعلاج أو بدون العلاج .

كما اتضح أن معظم الأطباء النفسانيين مرضى أكثر من مرضاهم وفى حاجة إلى تحليل .

وأخيراً رأينا الطب النفسى ينتكس ويرتد إلى العلاج المادى بالمسكنات والمهدئات والمخدرات والمنومات . . وهو اعتراف بالمعجز والفتل . . وهروب من المشكلة كلها بالنوم عنها .

وكيف لا تنتهى الفرويدية إلى الفتل وهى القائلة باستحالة تغيير النفس وتبديلها . . وبأن النفس تتشكل فى سنوات الطفولة الأولى . ثم تصبح قادراً لصاحبها لا خلاص منها .

وماذا أبقت لنا هذه النظرة سوى العلاج بالمسكنات والمراهم الخارجية . لقد انتهى علم النفس الحديث إلى الفتل لأن منطلقاته معظمها خاطئ ، وكان أكبر أخطاء هذا العلم أنه ليس علماً كما أن الماركسية لم تكن قط علماً . . وإنما هى مجموعة أفكار ظنية . كما أن علم النفس الحديث هو الآخر مجموعة أفكار ظنية وهذا بعض ما أورثتنا الحضارة المادية من ظنون وأوهام .

ومن تلك الظنون والأوهام ذلك الذى يسمونه علم النفس التجريبي الذى يجرى تجاربه على الإنسان كما يجرىها على الفئران والأرانب والكلاب . ويتصور النفس الإنسانية مجموعة ردود أفعال فسيولوجية مادية ولا أكثر .

وهو تصور خاطئ فالنفس الإنسانية «ذات» قبل كل شيء ولا يمكن إحالتها إلى موضوع مجرد. وهي كالحياة إذا عملت فيها بمضع التشريع ماتت في يدك . . والنفس دائماً تستخفي على النظرة التحليلية وتتكر بما تطرح في الظاهر من ردود أفعال سلوكية وهي لا تعطى سرها أبداً حتى صاحبها إذا بدأ يتدبرها كموضوع لأنها ليست موضوعاً بل هي في جوهرها ذات بكر إذا فضضت بكارتها وهتكت استسرارها وحاولت أن تفتحها بالنظرة الموضوعية استعصت عليك وتفلتت منك بمجموعة من البدائل السلوكية الخادعة وتحولت إلى شيء آخر . . ولم تعد « هي » . .

ويظل دائماً الفارق بين ماترى منها في الظاهر ومن حقيقتها كالفارق المائل بين الجسد الظاهر والروح التي تسكنه . . وأنت لن تصل أبداً إلى كنه الروح بتشريح الجسد . . وإنما أنت على أحسن الفروض سوف تفهم الجسد أكثر فأكثر ولكنك تظل دائماً بعيداً كل البعد عن إدراك سر الروح ولغزها .
وخطأ أصحابنا الماديين أنهم يتعاملون والنفس الإنسانية على أنها مادة هي الأخرى وجسد يمكن اقتحامه بالتشريح والتجربة . . وهم يفعلون هذا عن إيمان بأنه لا روح هناك ولا ذات ولا نفس . . وإنما مجموعة مركبات كيميائية اسمها الإنسان وتلك هي خطيئة الحضارة المادية .
وواجبنا أن نعرض هذه الحضارة على الفرز . .

ولقد عشنا مئات السنين عالة على الغرب ولكننا اليوم نستطيع أن نعطي الغرب ونعطي الشرق وما أكثر ما يستطيع الإسلام أن يعطي هذا العصر الخرب .



الشرعية . . متى . . وكيف ؟



الشريعة لم تنزل لمجلس الوزراء ولكنها نزلت إلى كل مسلم ليطبقها في نفسه أولاً وفي سلوكه وفي بيته وفي جيرانه وفي عشيرته، فكل مسلم راع وكل مسلم له دولته الخاصة وله رعيته التي عليه أن يطبق فيها أمر الله أولاً قبل أن يتوجه بالأمر إلى غيره . .

والآيات التي جاءت في القرآن في سورة المائدة :

- « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » (٤٤- المائدة)
« وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٤٥- المائدة)
« وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ » (٤٧- المائدة)

هذه الآيات نزلت لكل مسلم وإلى كل راع في رعيته وهي ليست مسئولية ينفرد بها الحاكم ولا أمانة اختص بها مجلس الوزراء . بل إن القرآن جاء صريحاً بأن الله لن يغير ما بالناس حتى يبدؤوا هم بتغيير ما في نفوسهم .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (١١- الرعد)
فإقامة شرع الله في دولة النفس هي البداية وهي الشرط الأول الذي بدونه لا تغيير ولا تبديل .

والله يخاطب عيسى في حديث قدسي قائلا :

(يا عيسى عظ نفسك فإذا اتعظت فعظ الآخرين وإلا فاستح مني .)

فالشريعة لم تنزل لنسير بها في مظاهرة إلى سراى عابدين دون أن يفكر هذا الذي يهتف ويتظاهر ويحمل اللافتات ويقذف بالطوب ويحرق الأتوبيسات (وبعضهم ماجور ومحترف ومتآمر وعميل لدول كبرى ودول صغرى وأحزاب تستعمل يده وتستعمل حنجرته وتستعمل الدين لتثير الانقلابات والفتن) هذا الذي يرفع عصا الشريعة على الحكومة دون أن يفكر في أن يرفعها على نفسه أولا لن يصل إلى خير . . ولن يحقق نفعا . . وإذا استطاع أن يحمل الحاكم على تطبيق الشريعة عنوة دون تجاوب من القاعدة ودون همة خاصة من كل فرد على تطبيق هذه الشريعة في نفسه فلن يصل إلى شيء ولن يكون التغيير إلا مجرد تغيير ظاهري ووضع لمزيد من الملتصقات مثلما فعل النميري في السودان فقطع يد سارق عشرة الجنيهات وأعفى سارق المليون .

والخوميني يقول إنه يطبق الشريعة في إيران والقذافي يقول إنه يطبق الشريعة في ليبيا وضياء الحق يقول إنه يطبق الشريعة في باكستان فأى تطبيق من هذه التطبيقات يريده المظاهرون .

وفي السعودية تقام الحدود بالفعل فتقطع يد اللصوص ويرجم الزناة ومع ذلك فقد طلع المهدي وعصابته على الكعبة بالمدافع الرشاشة بدعوى تطبيق الشريعة .

إنها إذن ليست حكاية الشريعة .

وهؤلاء الناس لا يريدون شريعة بل يريدون أنفسهم حكاما . . إنها

شهوة حكم ومطلب سلطة . . وما اللافتات المرفوعة إلا لافتات تمويه وما الهتافات إلا هتافات تعمية . . والشريعة بريئة من أهواء هذه الطائفة التي خططت لتعيد فتنة الخوارج فأرادت أن تخرج علينا رافعة المصاحف على أسنة الرماح هاتفة على الحاكم أن يطبق حكم الله . . وكما قال الزميل خالد محمد خالد لا نجد ردا نرد به عليها أبلغ من رد على بن أبي طالب . . أنها قولة حق أريد بها باطل .

وقد بدأت الفتنة الكبرى من ذلك التاريخ القديم .

واليوم نرى الزمن قد استدار دورته ونرى الإسلام يدفع به إلى فتنة أكبر وأشمل ، فنرى المسلم يقتل المسلم في كل مكان وحملة لواء لا إله إلا الله يذبحون بعضهم بعضا في لبنان والعراق وإيران وسوريا وليبيا وكل بلد عربي . وهم هنا يريدون أن يقتل بعضهم بعضا تحت راية الشريعة وباسمها .

وقديما لم يقطع عمر بن الخطاب يدا في مجاعة . . ولم يقطع النبي عليه الصلاة والسلام يدا في حرب . .

ونحن اليوم في حرب أو نكاد . . وفي فتنة هوجاء أسوأ من كل الحروب . . وما أسهل استئجار أربعة شهود زور لقطع يد برى . . وقد أوصانا الرسول عليه الصلاة والسلام أن نندرا الحدود بالشبهات . . وهل ترون عصر شبهات أكثر من عصرنا الذي يموج بالفتن كقطع الليل المظلم .

تمهلوا يا قوم ولا تعجلوا فتدفع بكم العجلة إلى الظلم . . فالشريعة ليست قضية إنفعال ولا مسألة هوى . . بل هي مطلب حقيقي وعزيز

ويجب أن تصدق فيه النوايا ويبدأ فيه الطالبون بأنفسهم وتجاوب فيه القاعدة مع القمة ويأتى فيه الإصلاح على مكث وعلى تروى وعلى تدرج، فنحن في الظرف الذى يسميه الفقهاء . . شيوع البلوى . . تماما كما كان انتشار الخمر في الجاهلية بلوى شائعة . . ولذلك نزلت آيات تحريمها على مكث وتدرج واستغرقت مراحل تحريمها أكثر من اثنتى عشرة سنة . . وكان هذا درساً من الله يعلمنا فيه مرونة التشريع الإلهى ومناسبته لكل الظروف .

ثم هناك ولا شك قضايا فقهية وقانونية في حاجة إلى إعادة تقنين وإعادة نظر مثل . . قضايا الرشوة والاختلاس والعمولات والسرقة من مال عام . . ومثل تلك السرقات لا يدخلها المشرع الإسلامى تحت بند قطع اليد . . لأنه يعتبر أن المال العام فيه شبهة ظلم فلا يبيح قطع اليد في سرقة . . وبذلك نراه يقطع اليد في عشرة جنيهاً ويعفى مختلس المليون الذى سرقها من قطاع عام . . وهذه مسألة تحتاج إلى إعادة نظر لأن أخطر سرقات اليوم هى سرقات القطاع العام وإعفاء مثل تلك السرقات من الحد سوف يشجع عليها . . وقطع يد صغار اللصوص وإعفاء كبارهم سوف يكون فتنة .

إن الدراسة المطلوبة وحسن الفهم عن الله شرط لتطبيق شريعته .
ثم إن الشريعة ليست مجرد حدود . . فالعدل شريعة والرحمة شريعة والعلم شريعة والعمل شريعة والله أمر بالعلم فى أكثر من ألف موضع وأمر بقطع يد السارق فى موضع واحد . . وأول الأوامر مطلقاً . . كان :
« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » .

ورغم هذا الأمر الصريح بالقراءة وهو الأمر الذى له أولوية مطلقة فى الإسلام فنحن أمة لا تقرأ ولا تعقل بل تفكر فى المظاهرات والاحتفالات والمسيرات لتطبيق الشريعة . . ولكن ما هى الشريعة ؟ . . إنها هذا كله . . إنها العلم والعمل والعدل والرحمة . . وهى ليست مجرد حدود . . وما الحدود إلا سياج الأمن والحماية الذى تضر به الشريعة حول خيمة المسلمين . . ولكن الشريعة ككل أكبر من موضوع الحدود فهى قانون الرحمة العام وقانون الحب ودستور النقاء والتطور للمجتمع الإسلامى .

وما أقول هذا الكلام إلا حبا فى الشريعة وتمسكاً بها وخوفاً عليها من سوء النوايا وسوء التفسير، وسوء الفهم وسوء التطبيق، وحرصاً عليها من متاجرة المتجرين وأهواء المتآمرين .

والإسلام الحق لا مدخل فيه للاكراه والعنف والمظاهرات والمزايدات السياسية بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار ولا مكان فيه للهوى والغرض والمتاجرة بالعقول .

ولا يصح فى الإسلام إلا الصحيح .

ولا يخلص إلا ما كان خالصاً لوجهه تعالى .

فتمهلوا يا قوم . . ولا تسارعوا باتهام بعضكم بعضاً . . فكلنا يسير على الشوك وكلنا يمشى على الألغام . . وكلنا مستدرجون من حيث لا ندرى بمكر الماكزين من الداخل وتآمر المتآمرين من الخارج . . ولا يسلم موطئ قدم من حفرة ولا تسلم عتبة من فخ منصوب . . والأعداء حولنا كبارهم وصغارهم لا يريدون لنا سلاماً وهم يخططون لخربتنا . . ويا جبذا لو جاء خرابنا بأيدينا لنوفر عليهم مؤنة القتال .

فلنتمهل . . . ولنفكر مرتين .
وليرفع كل منا عصا الشريعة على نفسه أولاً وليطبقها في سلوكه وفي
الدين الذى لا يلجأ إلى العنف إلا حينما يستنفد كل فرص الإصلاح . .
الدين الذى جاء رحمة للعالمين .

فلنحاول أن نكون مسلمين حقاً . . رحماء حقاً . . إنسانيين حقاً . .
فتلك هى بطاقات المؤمن الربانى الوارث الذى يسير على القدم
المحمدية .

أما العنف والإرهاب والانقلاب والإضراب والتظاهر وخطف
الطائرات وتلغيم السيارات، فتلك بضاعة الساسة الماكرين وأهل
الأغراض والأهواء، والمهيجين والمجرمين والمتاجرين بالعقول . . ولسنا
منهم . . بل ضدهم فهم لن يفتحوا لنا باباً إلى نجاة، بل سوف يفتحون
لنا جهنم على مصارعها .



وليرفع كل منا عصا الشريعة على نفسه أولاً وليطبقها في سلوكه وفي
بيته وليغير من نفسه . .
فإذا غيرنا من أنفسنا فسوف يغير الله ما بنا .
فذلك وعد الله . . ولن يخلف الله وعده .

ولندع تقنين الشريعة على مستوى الحكم يأخذ مجراه في هدوء بين
رجال قانون متخصصين ورجال فقه متعمقين وأهل نظر واجتهاد
متورين يأخذون لنا بالأحسن من كل شيء .
« وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ »
(٥٥- الزمر)

الله يوصينا بهذا مع أن كل ما أنزله إلينا حسن .
والله يلفتنا بذلك إلى تفاوت مراتب الأمر . . فالله أمرنا بالعدل ولكنه
أمرنا أيضاً بالرحمة . . والرحمة فوق العدل . . ومن يأخذ بالرحمة يأخذ
بالأحسن .

ألم يقل نبينا محمد عليه الصلاة والسلام للمسلمين .
تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى منها فقد وجب .
أى حاولوا تصفية الخلافات التى تقتضى الحدود فيما بينكم فيعضو
الواحد عن الآخر أو يأخذ دية ولا تبلغونى فإن ما بلغنى منها فقد وجب
تنفيذه . . يقول هذا كراهة لتنفيذ الحدود وإيثارا للعضو والتراحم بين
المتخاصمين .
وهذا هو الإسلام . . دين الساحة والتراحم والمحبة والمغفرة . .



يدور الجدل من قديم حول زيارة أضرحة الأولياء والتوسل إليهم . .
كما يدور الجدل حول موضوع الوساطة والشفاعة في الإسلام . . وهناك
وجهات نظر متعددة . . والموضوع دقيق . . ولي فيه رأى .
فالقرآن يرفع الوساطة بين العبد وربّه ويجعل العلاقة بين الإنسان
وبين الله علاقة مباشرة . . العبد يدعو والرب يستجيب .

« وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .
« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا
دَعَانِ » .
٦٠ - غافر
١٨٦ - البقرة

بل هو أقرب إلينا من جبل الوريد (أى من الدم من أجسادنا)
ولا حجاب بيننا وبينه إلا جهلنا .

ولا كهنوت في الإسلام ولم يظهر عندنا بابوات يمنحون صكوك
الغفران لأن الله فتح بابّه على مصراعيه لكل من يفكر في الدخول عليه .
بمجرد أن يتوجه العبد إلى القبلة مكبراً . . الله أكبر . . في أى
مكان من الأرض رافعاً يديه للصلاة . . يصبح بين يدي ربه دوّماً حاجة
إلى وسيط لإدخاله إلى الحضرة الربانية .

ولهذا اقتصر دور رجل الدين في الإسلام على الاجتهاد في العلم

ونشر الدعوة . . ولم يشتغل أحد بالوساطة ولم يزعم أحد لنفسه شفاعه .

ومع ذلك قال كثير من الصوفية بالتوسل والبركة واعتقدوا في التقرب

إلى الله بشفاعة الرسول وآل البيت والأولياء .

واعتمدوا في هذا الإيمان على أن الشفاعه وردت في القرآن مشروطة بالإذن .

« مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . ٢٥٥ - البقرة

« مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » . ٣ - يونس

« وَلَا تَتَّبِعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَى لَهُ » . ٢٣ - سبأ

ومعنى ذلك أن القرآن ينفي الشفاعه إلا إذا كانت بإذن وقبول من الله .

وذلك معناه أيضاً أن هناك شفاعه مقبولة وشفاعه غير مقبولة . . وأن

هناك شفيعاً يؤذن له . . وشفيعاً لا يؤذن له .

واستدلوا بقول الله للرسول عليه الصلاة والسلام :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » . ١٠٣ - التوبة

فجعل الله من صلاة الرسول واسطة رحمة وسكن .

كما استدلووا بطلب قوم فرعون وساطة موسى حينما نزل بهم القحط .

« قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ

لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ١٣٤ - الأعراف

وقد استجاب الله لتلك الوساطة كما تقول الآيات ولكن فرعون

عاد فنكث عهده .

كما استدلووا بقصة الغلامين اللذين كان لهما كنز حفظه الله من

الضياح ببركة صلاح الأب .

« وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا

وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا

رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ » . ٨٢ - الكهف

كما استدلووا بذكر القرآن استغفار الله مقروناً باستغفار الرسول

كشرط لبلوغ التوبة في قوله عن الظالمين :

« وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ

الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا » . ٦٤ - النساء

وكلها آيات صريحة عن شفاعه الرسول وفائدة التوسل بال صالحين .

ولكن المنكرين استدلووا هم أيضاً بآيات صريحة وقاطعة مثلما قال

الله تبارك وتعالى للرسول عن الكافرين :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ

اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » ٨٠ - التوبة

فهى آية صريحة تنكر جدوى الوساطة ولو كانت سبعين استغفاراً

من الرسول الكريم .

وشلها إنكار القرآن استغفار إبراهيم لأبيه :

« وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا

تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » . ١١٤ - التوبة

وشلها إنكار الملائكة على إبراهيم توسطه لرفع العذاب عن قوم

لوط .

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتُهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَن هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرٌ مُّرْدُودٌ » . ٧٤-٧٥-٧٦-هود
 فإنكار الملائكة على إبراهيم الوساطة صريح .

وأصرح من ذلك ما جاء من زجر الله لنوح عن الكلام في شأن الظالمين .
 « وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ » . ٢٧-المؤمنون
 والآيات المؤيدة لكلا الفريقين (المؤمنين بالتوسل والمنكرين له)
 قاطعة .

فكيف نفهم الأمر . . وهل هناك تناقض . . ؟ !

والواقع أنه لا يوجد تناقض . . والآيات في الحقيقة تتكلم عن مستويات مختلفة .

والمبدأ الرئيسى والجوهري أن حكم الله لا يرد .
 « وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » . ٤١-الرعد
 فلا يستطيع نبي ولا ولى أن يرد قضاء الله أو يعدل حكمه ولا يجوز له أن يسعى إلى هذا التعديل ولا يبغي له أن يفعل ذلك .

والشفاعة الواردة في القرآن لا ترفع حكماً ولا تبدل قضاء . .
 وإنما هي مظهر تشريفي من مظاهر هذا القضاء ذاته .
 فالله في سنته الأزلية إذا أراد لعبد خيراً . . يناوله هذا الخير بيد عبد مثله .

فالله يشق على يد جراح . . ويعلم عباده على يد أساتذة الجامعات وينذرهم بلسان الأنبياء المرسلين . . وهو يغرق بالسيل ويسقى بالمطر ويقتل بالصاعقة . . وهو يرزق التاجر على يد تاجر مثله .

وكان يمكن لله أن يناولنا المال بيده مباشرة ويشفينا بكلمة دون حاجة إلى جراحة أو دواء ولكنه أقام الأسباب لناولنا الخير عن طريق الأيدي المباركة التي يحبها ويناولنا الشر عن طريق الأيدي الآئمة التي يبغضها .
 وفي الآخرة سيناولنا الله البراءة والنجاة عن يد رسولنا الكريم وذلك هو مقام الشفاعة العظمى ، وذلك هو معناه .

والرسول بهذا المعنى مناوول خير ومناوول فتح ومناوول رحمة . . وهو لا يبدل حكماً ولا يغير قضاء . . تعالى ربنا عن أن يشرك في حكمه أحداً .
 « لَمَّا أَمَلْتُكَ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » . ١٦- غافر
 لا اله إلا هو . .

فالله وحده هو صاحب الكلمة والأمر والحكم .
 ولهذا قطع القرآن بأن استغفار الرسول عليه الصلاة والسلام للكفار لن ينجيهم . . وقال إن استغفار إبراهيم لأبيه كان عن أمل في إيمانه حتى إذا تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

كما جاء كلام الملائكة في توسط إبراهيم لقوم لوط عنيفاً :
 « يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَن هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرٌ مُّرْدُودٌ » . ٧٦- هود

ومعنى ذلك أن الوساطة والتوسل والشفاعة بالمعاني التي تفهمها في الدنيا (وهي التوسط عن غير حق وعن غير جدارة) لا مكان لها في الدين وهي غير واردة إطلاقاً . . فكلمة النبي لا تنجى كافراً ولا تنقذ ظالماً عاصياً مات على ظلمه دون توبة .

وإذا كانت الوظائف والمنازل والمراتب في الدنيا يفوز بها الوصوليون

بالتعلق والوساطة والتوسل فهذا أمر ممتنع تماماً في الآخرة . ومثل هذا التوسط محال .

والملائكة لا يتكلمون بين يدي ربهم إلا من جاء بالحق وقال صواباً
« لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً » ٣٨ - النبأ
فلا إذن لأحد بكلمة إلا إذا كانت حقاً .

وكلمات الرسل لن تغير ولن تبدل من قضاء الله شيئاً فهو الشاهد
على كل الشهود . . ولن يزداد ربنا بكلمات الرسل والشهود والملائكة
والكاتبين علماً على علمه . . فهو سبحانه أحاط بكل شيء علماً .

إنما يأذن الله لرسوله بالشفاعة لمن كتب لهم النجاة مسبقاً في كتابه
(وذلك من باب التشريف) ليكون الرسول هو مناول البراءة والرحمة
لأتباعه يصلهم الخير العميم على يده (وذلك هو معنى الشفاعة) .

ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام :

« إنما أنا قاسم والله معط » .

فإعطاء من الله والخير من الله والحكم من الله وإنما يشرف الله
رسوله بأن يكون هذا الخير بشفاعته وعن يده .

وصلوات الرسول سكن لمن يصلي لهم ولكن لو أراد الله ألا ينالوا
سكناً لما أذن لرسوله بهذه الصلوات ولما صلاها أصلاً .

والمعنى دقيق . . فلا أحد يسبق الله . . ولا حكم يتخطاه أبداً والمراد

بالتوسل في الآية :

٣٥ - المائدة

« وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ »

إن وسيلة كل إنسان عمله .

ولكن العمل الأمثل هو اتباع الرسول واتخاذة قدوة في جميع الأعمال .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . ٢١ - الأحزاب

فالرسول بهذا المعنى « وسيلة » غير مباشرة لأنه قرآن يمشی على الأرض
وتمودج كامل للخلق الشريف الأمثل . . ومن مشى على قدمه تناول البراءة
على يده ودخل الجنة بشفاعته (إذ سيكون مأذوناً في هذه الشفاعة بحكم
سنة الله في كل المتبعين) .

وشهادة الأب الصالح للابن الصالح . . وشهادة الملائكة للأبرار
الذين كانوا لهم قرناء على الأرض .

وشهادة الأرواح المرشدة لأتباعها .

كل هذه الشهادات لا تزيد الله علماً على علمه (فالله لا يحكم
بالمداولة ولا يحتاج إلى محلفين ولا يحتاج إلى مشورة قاضي يمين وقاضي
يسار) وهو قد حكم من الأزل وانتهى الأمر . . إنما هذه شهادات شرف
الأصحابها والإذن بها علامة ارتفاع منازلهم عند الرب . . ومنتهى التشريف
أن ينجو الناجي عن لسان هؤلاء الأنبياء وأن يتناول براءته من أيديهم .

هذا هو المعنى الإسلامي للشفاعة والتوسل . وهو شيء آخر غير ما
يجرى في أضرحة الأولياء من تقبيل النحاس وإلقاء الخطابات في المقام
والصراخ الساذج من المكلمين .

مدد يا رفاعي

نظرة يا سيد

إيدك معانا يا بدوي

همتلك معانا يا قطب الرجال

أغشنا يا رسول الله

الشفأ بإيدك ياسيدي إبراهيم يا دسوقي

أنا جايك يا حسين ماتر جعنيش إيدى فاضية
يا ست . . الأمر أمرك .

وقد نسي الكل التوجه إلى الله وتشبثوا بقضبان نحاسية يغمرونها
بالمذموم . . وجاء الفلاحون من أقاصى الريف وضرَبوا خيامهم كالحجيج
يبيتون ويأكلون ويشربون . . وفي الموالدترقص الغوازي ويغنى صاحب الربابة
ويستعرض عنتر عضلاته . . ويتحول السامر إلى سوق لبيع المسابح والزمامير
والحمص واللب وبيع الأعراس أحياناً . . ومدد يا سيد . . وكله بركة .
تلك جاهلية لا يعرفها الإسلام . . وشعوذات وسخافات تجب محاربتها
والقضاء عليها .
وقبور الأولياء لها حرمة .

وحدود الزيارة أن يقرأ الزائر الفاتحة ويترحم على ساكن الضريح
ويجدد عهده للرسول وعترته بالعمل الصالح والافتداء والاتباع ويدعو الله
ببركة نبيه أن يجعل له نصيباً في شفاعته لا يتشبث بنحاس ولا يطوف بمقام
ولا يترامى على ضريح ولا يعدل بوجهه عن الله لحظة .

ذلك هو موقف الأدب في حضرة الأولياء .
فليس عند أحد من الأولياء مدد .
إنما المدد يأتي من الله وحده .

والفتح من عند الفتح . . هو الذى يستغاث وحده وترتجى عنده

المقاصد .

ومقام الشفاعة هو تشریف الرسول بأن يكون مناوئاً للفتح . . من مشى
على قدمه أخذ من يده ، ولكن المعطى هو الله . . والإذن بالشفاعة والعطاء
من عند الله .

وهي شفاعة لا تبدل حكماً ولا تتخطى قضاء ، وإنما هي تنفيذ
لما سبق في حكم الله منذ الأزل . . وهي لا تصل إلا لمستحق .
لا تجدى شفاعة لكافر ولو اشترك فيها كل الأنبياء وهو أمر لا ينبغي
لهم بحكم مقامهم .

يقول طالبو الشفاعة والمستصرخون والمتوسلون يوم القيامة حيناً يذهب
عنهم الروع بعد الفزع الأكبر . . يقولون للملائكة . . ماذا قال ربكم
في مسألتنا فيقول الملائكة . . الحق . .

« الحق » . . كلمة واحدة يرد بها الملائكة . . فلا شيء في هذا
اليوم غير الحق . . لا تجدى شفاعة في غير حق . . ولا إذن لشفاعة
في غير حق . . ولا مكان لفوضى الوساطة بالمعنى الذى نعرفه في الدنيا ،
يقول القرآن يصف هذا الموقف العصيب :

« حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » .

أى تعالى ربنا أن يتخطى حكمه وأن يتجاوز الحق بأى سبيل .
وفى إطار هذا المعنى الجليل تفهم الشفاعة ويفهم التوسل .





السارق تقطع يده في مكة وتقطع رقبته في موسكو ويعاقب بالسجن
في أغلب دول العالم .

ونتيجة تراخي القوانين الخاصة بالسرقة وعدم انضباطها في أكثر مدن
العالم أصبحت السرقة هي الحرفة المفضلة لنجوم المجتمع وللسادة الحكام
أمثال السيد تاناكا رئيس وزراء اليابان صاحب فضيحة لوكهيد أو السارق
الآخر صاحب السمو والقمخامة زوج ملكة هولاندا الطرف الثاني في
نفس الفضيحة . . وأصبحت المبالغ المسروقة أرقاماً خيالية من ملايين .

لقد اختل نظام العالم تماماً وأصبح الجاه والرفعة من نصيب اللصوص
والذل والهوان والبؤس من نصيب الشرفاء ومع ذلك نأخذ على القرآن أنه حكم
بقطع يد السارق ولا نأخذ عليهم في روسيا أنهم يقطعون رقبته وينشرون خبر
إعدامه في صحفهم الرسمية .

وبرغم بشاعة وغلظة قطع اليد فإنها مازالت أكثر الأساليب قطعاً
لداير الجريمة وأكثرها توفيراً للمال والدم في المدى البعيد . . فلم يطبق هذا
الحكم في عهود الخلفاء الأربعة الأوائل إلا أربع مرات وكانت هذه المرات الأربع
كافية لحسم الأمر على مدى السنوات الطويلة التي حكم فيها هؤلاء الخلفاء
فانتشر الأمن في ربوع الصحارى والنجوع والوديان التي كانت مرتعاً

لقطاع الطرق وعصابات السلب والنهب . . . وأمكن توفير دماء غزيرة كان مؤكداً لها أن تسيل وأمكن استنقاذ ضحايا لا عداد لها طوال تلك السنين بقطع هذه الأيدي الأربع فقط .

ولم ينفرد القرآن بهذا الحد القاسي وإنما جاء الحد نفسه في ٣ لتوراة .
وجاء في الإنجيل برغم رفته .

« إذا أعترتك يدك فاقطعها وإذا أعترتك عينك فاقطعها » .

ومعلوم أنه لا يجوز تطبيق هذا الحد في شبهة أو في مجاعة أو في ظروف حرب ولا يجوز تطبيقه على سارق سرق لياكل أو رجل مختل العقل كما لا يجوز تطبيقه في مجتمع تشيع فيه المظالم وإنما لابد أن يواكب القانون نظام إسلامي عادل لتوزيع الثروات وتشغيل الأيدي المتعطلة .
ومع ذلك ففي آية قطع اليد القرآنية مجال للتأمل والنظر .

يقول المستشار مصطفى كمال المهدي : إن الآية لا تذكر سارقاً أي سارق وإنما هي تأتي به معرفاً بأل التعريف فتقول . . . السارق والسارقة !
« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »
٣٨ - المائة

وأل التعريف لا تأتي في القرآن عبثاً . . .

ولا يوجد في القرآن حرف زائد إلا للحكمة ومعنى مقصود وسبب .
وفارق كبير بين كلمة « سارق » وكلمة « السارق » .

و « السارق » مثلها مثل الفارس والكاظم، حينما تأتي بأل التعريف فنحن لا نطلق « الفارس » على من ركب الفرس مرة واحدة وإنما على من احترف الركوب وعرف به .

وكذلك لا نطلق اسم « الكاتب » على من كتب ذات مرة بضع

كلمات في ورقة ولا نطلقه إلا على من احترف الكتابة وعاودها واصطنعها وعرف بها .

وكذلك السارق الذي تقطع يده في القرآن هو محترف السرقة . . . الذي يرتكبها ويعاودها . . . أما الذي يسرق مرة في ظرف انفعالي فلا تنطبق عليه الآية وإنما يؤخذ بقوانين الردع الجنائية السارية وينذر بقطع يده إذا عاود السرقة . . . فإذا عاد إلى السرقة بعد خروجه من السجن فهو « السارق الحق » الذي يقع تحت طائلة الآية . . . هذا هو تحليل الأخ المستشار مصطفى المهدي وهذا هو فهمه .

وكذلك « الزانية والزاني »

فقد ورد كلاهما في القرآن بأل التعريف .

وأل التعريف تعني الرجل والمرأة اللذين أدخلوا إلى الزنا واتخذاه سلوكاً مختاراً أو حرفة أو حياة ولا تعني رجلاً سقط ذات مرة في لحظة ضعف تحت إغراء عارض فقارف الزنا ثم ندم فمثل هذا الرجل ومثل هذه المرأة لا يذكران بأل التعريف وإنما هما محض زان وزانية وتنطبق عليهما الآية الأخرى من سورة النساء .

« وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأُذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً »
١٦ - النساء

ونوع الإيذاء هنا ودرجته متروك لولي الأمر .

ويدخل تحت الإيذاء . . . التشهير والمقاطعة والضرب « السجن والحرمات من الحقوق » .

فإذا عاود الاثنان الزنا واصطنعاه فإنهما يقعان تحت طائلة الآية :
« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا

رَأْفَةً فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

٢ - النور

وما يؤكد هذا الفهم أن شرط إقامة الحد هو أن يشهد أربعة شهود عيان على الزانية والزاني (يشهدون أنهم عاينوا الإدخال بالفعل) . . وهو أمر لا يمكن أن يحدث إلا في بيت دعارة وعلى مستوى احترام . . لأن الذى يقارف الزنا في لحظة ضعف وتحت إغراء عارض يختلسه اختلاساً من وراء العيون ولا يمكن أن يستعرضه أمام جمهور . . فالآية نزلت لتقيم الحد على داعر وداعرة محترفين وليس على مراهق غلبته غريزته في لحظة غواية . . فهذا يكفى لردعه أن يترك لولى الأمر يؤذيه بالصورة التى تناسب درجة انحرافه .

أما الزوجة التى تزنى فعقابها السجن .

« وَاللَّائِي بَأْتَيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا »

١٥ - النساء

والإمساك في البيت هو السجن حتى الموت أو حتى يجعل الله لها سبيلاً .

أما الرجم فلم يرد به حرف واحد في القرآن .

ولا توجد في القرآن آية رجم واحدة

وإنما قرأنا عن الرجم في روايات السيرة . . وهى روايات لم تسلم من التغيير والتبديل . . وليس لها ما للقرآن من حفظ وتوثيق مطلق .

والله تعهد بحفظ القرآن من التغيير والتبديل .

« إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »

ولم يتعهد بحفظ روايات السيرة .

فما جاء بالسيرة اجتهادات تحتل الخطأ والنسيان والإضافة والمبالغة .

ولو أراد الله الرجم وهو حد خطير لما أغفل ذكره في كتابه المحكم

الذى لم يفرط في شيء وإنما الرجم كان من الحدود التوراتية .

وقد حفلت التوراة بالرجم . . الزانى يرحم والزانية ترحم وعاق أبويه

يرجم والمرتد عن دينه يرحم والذى يسب دينه يرحم وإذا استعمل رجل

حيواناً لقتاء شهوته فإنه يرحم كما يرحم الحيوان ولا يؤكل لحمه . .

وكذلك إذا نطح الثور رجلاً فإن الثور يرحم ولا يؤكل من لحمه . .

وكل التوراة رجم في رجم . . ولا ندرى هل أنزلت هذه العقوبات بالفعل

أم أضافها المحرفون . . أم هى غلظة اليهود الذين كانوا يرحمون كل خلق

الله . . وما زالوا يرحمون كل خلق الله .

كل ما نعلمه أن القرآن لم ترد به آية رجم واحدة

وأن ما جاء في كتب السيرة يمكن أن يكون محل نظر .

وكذلك يقول المستشار مصطفى كمال المهدي إن رخصة تعدد

الزوجات التى جاءت في القرآن جاءت بشرطين :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْتِ مَا فَانِكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ

مَتْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً »

٣ - النساء

والشرط الأول هو :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْتِ »

فلا يصح التعدد لمجرد الشبهة وإنما أنت تضم إلى زوجتك الأولى

امرأة أخرى هى أم أيتام تخاف على أيتامها التشرذ فتضمها زوجة ثانية

وتعمل أولادها وهو عمل صالح . . وكذلك الثالثة والرابعة . . وأنت في هذه الحالات تقذف أبتاماً من الرصيف ولست الرجل الشهواني الذي يجمع الشقراء إلى جوار السمراء إلى جوار البيضاء .
والشرط الثاني هو العدل .

وإن لم تستطع أن تعدل في الإنفاق فعليك بالاكفاء بالواحدة والإسلام بهذا المعنى دين عطف ورعاية لا دين شهوة واستمتاع .
هذا هو فهم الأستاذ المهدي وهو يخالف ما فهمه كثرة الفقهاء .

وبنفس المعنى يفهم الأخ مصطفى المهدي حكاية « ما ملكت إيمانكم » فهو لا يفهمها بأنها رخصة بالمسافة للجوارى والسرارى وأسيرات الحروب والرقيق وإنما هو زواج . . ولا تستحل النساء في القرآن إلا بالزواج والمهر بدليل الآيات :

« وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ قَبَائِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ » . ٢٥ - النساء .
والآيات صريحة .

من لم يستطع أن يصاهر الحرائر ويدفع مهرهن فليتزوج من السرارى ويدفع مهرهن ولا يسافح ولا يخادن .

السفاح والمخادنة منهي عنهما في القرآن ولا رخصة فيهما .
وإنما إن أراد الغنى أن يزيد على زوجاته الأربع فمما ملكت يمينه من جواريه زواجا لا سفاحاً فيعدد كيف شاء . . لأن التعدد هنا عمل صالح وإنساني فهو يعتق به رقبة ويضمها زوجة إلى فراشه بعد أن كانت جارية .

ولا شك أن الأخ مصطفى المهدي قد اختلف بذلك عن الفهم السلفي لهذه الآيات وحجته في ذلك أنه إذا احتملت الآيات أكثر من وجه فعلينا أن نفهمها على أكرم وجوهها فلا يصح أن نفهم القرآن فهماً شهنائياً وهو الكتاب الذي حرم النظرة .

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » . ٣٠ النور
« وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ » . ٣١ النور

مثل هذا الكتاب العفيف كيف يفهم منه المسافة والاستباحة والمخادنة إنما يمتحن الله بآياته المشتبهات القلوب فيرى منها صاحب الهوى الوجه الذي يناسب هواه ويرى منها الرجل العفيف وجهها الحق العفيف .

صدق الله العظيم في قوله عن كتابه بأنه يضل به ويهدى :
« يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا يَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ » ٢٦ - البقرة
فالآيات واحدة وإنما تختلف التفسيرات باختلاف العقول والأهواء .

وتفسيرك يكشف إيمانك كما يكشف ضلالك كما يكشف هواك إن كنت صاحب هوى ولا يستغرب أن تختلف التفسيرات وأن يشيع ويغلب تفسير باطل وإنما تقتضينا التقوى وخشية الله أن نتبع من آيات كتابه أحسن ما نفهم من وجوهها .

قال تعالى في محكم تنزيله :
« وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » . ٥٥ - الزمر

ولا شك أن كل ما أنزله ربنا حسن . . وإنما تختلف وجوه فهمنا نحن وعلينا أن نتبع أحسن هذه الوجوه . . فهذا مراد ربنا .

ونظر الأخ المهدي إلى القرآن جدير بالاستماع والتأمل والبحث ولكن لنا تعليق . . فاشترطه في تعدد الزوجات أن تكون الزوجة الثانية أما

لأولاد هو فهم يخالف تفسير الرسول عليه الصلاة والسلام للآية .
وتفسير الرسول عليه الصلاة والسلام للقرآن ملزم لنا ولجميع المسلمين
فهو القرآن الحى المتجسد الذى يمشى على الأرض . . . ومعلوم من سيرة
الرسول الثابتة أنه تزوج زينب بنت جحش على زواجه ولم تكن أما لأولاد ولم
يكن لها أيتام يخشى عليهم الرصيف كما تزوج عائشة بنت أبي بكر وكانت
ثالث زوجاته وكانت بكرًا . . . كما أنه عدد الشقراء إلى جوار السمراء
إلى جوار البيضاء . . . تلك هى السيرة الثابتة بالإجماع ولا أوافق الأخ مصطفى
كمال المهدي على التشكيك فى السيرة بحجة عدم تعهد الله بحفظها
فذلك يفتح الباب لفتنة لا تنتهى، يمكن أن تصل إلى التشكيك فى شخصية
الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه، وإنما حسبنا التدقيق وليس التشكيك .
وكذلك لا أوافق الأخ المهدي على عدم حل الجوارى والرقيق والسراى
وعلى لزوم الزواج بهن . . . وأستدل على ذلك بصريح القرآن حيناً يتكلم عن
المؤمنين قائلاً .
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ . . . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . . .

٢٩ - ٣٠ - المارج

ويفرق القرآن بين الأزواج وبين ملك اليمين فى الآية ويقول بأن
المؤمن غير ملوم فى إتيان ما ملكت يمينه . . .
والسبب فى هذه الرخصة واضح وهو أن النساء المسلمات كن يقعن
أسيرات فى الحروب وكان الكفار يستبيحنهن . . . فكانت تلزم المعاملة
بالمثل فيعطى المسلم الرخصة فى استحلال ما يقع فى يده من أسيرات الكفار .
وظل هذا الوضع قائماً حتى نزلت الآية بعدم جواز استبقاء الأسرى
وأن على المسلم أن يطلب الفدية فى أسيرة أو يحن عليه بإطلاق سراحه .

« فِيمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِمًا فِدَاءً »

محمد - ٤

أما وجهة نظره فى إعفاء السارق لأول مرة من الحد رغم ثبوت التهمة
عليه فأمر لا يجرؤ عليه قاض مسلم بعد حديث الرسول الثابت فى توسط
زيد لإعفاء المخزومية . . .
« والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ولم يقل
لو أنها سرقت للمرة الثانية .
والمقصود من حد السرقة هو التخويف والردع . . . والإعفاء من الحد
فيه تشجيع ولا يتناسب مع الردع والإرهاب .
أما وجهة نظره فى الزنا فمعقولة واشتراط القرآن لشهود أربعة
شهود الإدخال هو شرط يؤيد وجهة نظره فى أن هذا أمر لا يقع إلا محترف
دعارة وليس لحدث استبد به انفعال اللحظة .
ولكن ما بال الأخ المهدي لو ذهب هذا الحدث واعترف بذنبه
وطلب توقيع الحد عليه ليتطهر وكان عاقلاً رشيداً صادقاً . . . ماذا يقول
المهدي فى ذلك .
أما كلامه عن إنكار تطبيق حد الرجم فى السيرة فأمر متروك لعلماء
السيرة فإن كان ثابتاً ومحققاً عن الرسول أنه رجم فلا نملك إلا الطاعة .
ولكن لى تحفظ واحد فى حدود الزنا أنه لا بد من إتاحة مناخ اجتماعى
نظيف للشباب قبل رجمه أو جلده . . . أما المسارعة بالجلد والرجم فى الوقت
الذى يدعو فيه الغناء الفاحش وروايات الجنس العارى فى مساح
أجهزة الإعلام ودور السينما الحكومية وتليفزيون الدولة وإذاعتها كل
شاب صابحاً ومساءً إلى إتيان الزنا ومزاولة العناق والقبلات والاستمتاع
بالمضاجعة جهاراً نهاراً . . . المطالبة بتطبيق الحدود قبل تطهير هذا الجو . . .
هو ظلم ليس من الإسلام فى شيء .

ونفس الكلام أقوله للمطالبين برجم المرتد عن دينه .. فالمرتدون اليوم عن الإسلام هم في حقيقة الأمر ليسوا مرتدين .. وإنما هم لم يكونوا مسلمين حقاً في أى يوم من الأيام . ولم يعرفوا من الإسلام إلا قشوره . ولم يروا للإسلام قدوة تحببهم فيه . وإنما أخذوا إسلامهم وراثته ودون تفكير أو اختيار أو بصيرة . . فهؤلاء لم يدخل الإسلام قلوبهم ولا عقولهم ولو أنه دخل لما خرج أبداً ولما ارتدوا أبداً . .

علموا الناس الإسلام وأعطوهم القدوة .. أوفى من هذه الطنطنة بالرجم والقتل والشتق . .
 ودين الإسلام دين إقناع ومنطق وسماحة وليس دين إرهاب . .
 وقد انتشر الإسلام بالإقناع وبالهدوء ولم ينتشر بالإرهاب ولا بالرصاص ولا بالرجم بالحجارة . .

الفهرس

الصفحة	
٥	* لماذا خلق الله الحشرة ؟
١٩	* لغز الزمن في القرآن
٢٩	* التأمراً على الأديان
٤١	* علم نفس قرآنى
٥٩	* الشريعة .. متى وكيف ؟
٦٩	* التوسل
٨١	* قطع اليد في القرآن



صدر للمؤلف

- ٤١- الطوفان
٤٢- الأفيون
٤٣- الوجود والعدم
٤٤- من أسرار القرآن
٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الغليان
٤٧- عصر القرون
٤٨- القرآن كائن حي
٤٩- أكلدوية اليسار الإسلامي
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيح الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
٥٤- من أمريكا إلى النشاط الآخر

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

- قصص مصطفى محمود صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
روايات مصطفى محمود صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
مسرحيات مصطفى محمود صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
رحلات مصطفى محمود صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
حازت رواية «رجل تحت الصفر» على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

- ٢١- غوما
٢٢- الشيطان يسكن في بيتنا
٢٣- الغابة
٢٤- مغامرة في الصحراء
٢٥- المدينة (أوحيايات مسافر)
٢٦- اعترفوا لي
٢٧- ٥٥ مشكلة حب
٢٨- اعترافات عشاق
٢٩- القرآن محاولة لفهم عصري
٣٠- رحلتي من الشك إلى الإيمان
٣١- الطريق إلى الكعبة
٣٢- الله
٣٣- التوراة
٣٤- الشيطان يحكم
٣٥- رأيت الله
٣٦- الروح والجسد
٣٧- حوار مع صديق المحدث
٣٨- الماركسية والإسلام
٣٩- محمد
٤٠- السر الأعظم
١- الله والإنسان
٢- أكل عيش
٣- عنبر ٧
٤- شلة الأنس
٥- رائحة الدم
٦- إبليس
٧- لغز الموت
٨- لغز الحياة
٩- الأحلام
١٠- أينشتين والنسبية
١١- في الحب والحياة
١٢- يوميات نص الليل
١٣- المستحيل
١٤- الأفيون
١٥- العنكبوت
١٦- الخروج من التابوت
١٧- رجل تحت الصفر
١٨- الإسكندر الأكبر
١٩- الزلزال
٢٠- الإنسان والظل